إلا عشرين ثانية

تأليف

د/ منى العطار

بطاقة فهرسة

العطار ، منى

إلا عشرين ثانية

اعداد د/ منى العطار

١٤,٨ X٢١ سم

© المركز العربي للنشر والتوزيع

رقم الايداع القانوني بدار الكتب المصرية

٢٣١١٦ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي ISBN 978 – 977 – 02 –8859 – 7

طبع في جمهورية مصر العربية بمطابع دار المعارف

المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب

ALESA

Website : www.aiesa.org

إهداء

ــــــــــ

إلى الأحبة..

إلى كلّ مَن شارك بتكويني من فرحة ونبضة وحبّ..

إلى أسرتي الكبيرة والصغيرة، سلامًا..

وإلى كلّ مَن خذلني وهُم كُثر، سلامًا..

إلى كلّ مَن رأت عيني، سلامًا.

المقدّمة

ــــــــــــ

حينَ يتوقّف النبضُ والتنفس

يأبى العقل إلّا العناد، ولكن..

هي فقط عشرون ثانية كحدّ أقْصى ما بين الحياة والحياة الأخرى.

فهلْ نملكُ فيهم القدرةَ على اتّخاذ قرارٍ بالعودة أو الرحيل؟

عودة

لا أدري.. لماذا دائمًا تأخذني أقدامي إلى هذا المكان، فكلما فقدتُ بوصلة روحي ترحل بي أقدامي إلى شارعنا القديم، هكذا حدّثت "منى" نفسَها في تعجّب، كثيرًا ما حدثَ، ولكنّ هذه المرّة الأغربُ على الإطلاق، فكلّ خطوةٍ أخطوها تُعيد تلوينَ الشّارعِ والبيوت القديمة إلى أصلِ الألوان حين كنّا هنا، ومع كلّ خطوة باتّجاه منزلنا القديم، تبدأ الأصواتُ والصخب في حالةِ اقتراب، وتتصاعدُ أبخرةُ الماضى في وضوحٍ، تصطحب أرواحَ مَن سبقونا إلى السماء، أراها تتسابقُ لأخْذ مكانها السّابق من حوانيت ومنازلَ ومصاطب شارِعنا، كلّ في نفسِ مكانهِ القديم الأوّلي، بكاملِ هيئته، ولكنْ مبتسمًا ابتسامةٌ حانيةٌ تنظرُ إليّ. الجميعُ ينظرُ إليّ، سرَتْ رعدةٌ بوجداني فأنا أحبّ الجميع، والكلّ أحبّني عندما كنتُ طفلةً هنا، وصبيّة، وشابّة ولكنْ هناك شيء عجيب، أحسّه في نظراتِهم كأنّه تهيئة لأمرٍ جَلل، ويغلبُ فضولي خوفي، وأسيرُ قُدمًا، فعند الانحراف يمينًا مِن شارعِ السوق يبدأ شارعُنا الكبير، وهذا لا يعني كثيرًا، فهوَ بالنّسبةِ لي عالمٌ آخر، كان غربةً لي وأنا طفلة، انحرافٌ قليلٌ إلى

اليسار ويبدأ عالمي السّاحر. شارعي بكلّ تفاصيل طفولتي وباقي حياتي، ولا أدري أين وصلتْ بي الحياة، فلقد أخذني الغوصُ في تفاصيل الشّارع، وبدأتُ صورة ما سبق تهتزّ، ويغشاها الضّباب، في حين بدأتْ تصبح ملامح حياتي السّابقة هنا تأخذُ في الحدّة والوضوح.

أصواتُ المارّة في كلّ الأنحاء، بدأتِ الشّمس تُلملم أطرافَ أشعّتها، وتتسلّل إناراتُ الأعمدة على استحياء، وكأنها تستأذن الجميعَ في القدوم.

وعلى النّاصيةِ يؤذّن المسجد الكبير– مسجد الأوقاف– القابع في آخرِ ناصية على حدودِ شارع الجغرافية:

اللهُ أكبر.. اللهُ أكبر

حيّ على الصلاة

حيّ على الفلاح

ويضبط عمّ "عزيز" الترزي طاقيتَهُ البيضاءَ المشغولة يدويًّا، والتي أحضرها من الحجاز، مُناديًا: يالّا يا حاج "بيشة".. الصلاة.

عمّ بيشة في ضجر: إيه يا عمّ "عزيز"، الصبر، هاخلّص مكوة القميص ده وآجي.

عمّ عزيز مُبديًا جديّة غيرَ معهودة منه: يا راجل دا المغرب غريب، إنجز؛ فاللهُ لا يبارك في عملٍ يلهي عن الصلاة.

: يا أخي، مِن يوم ما رجعت من العُمرة وإنت اتبدّل حالك، برضه هاخلّص شغلي الأوّل.

ويرتفع صوتُ عمّ "بيشة" الجَهْوري بضحكةٍ ساخرة استفزّت عمّ "عزيز"، فعادَ إلى قواعده كرجلٍ من عموم البشرِ وليس متعهّد الوعظ بالشارع، وصاحَ قائلًا: ها أقولّك إيه! ما انت زملكاوي، ولاعمره كِسِب، ولا عمركم بطّلتوا تشجّعوه، اكوي.. اكوي، يمكن تفلح في حاجة.

وسارع بالخطى مُتباعدًا معَ قهقة عالية شاركه فيها كلّ المارّة؛ ممّا جعل عمّ "بيشة" يترك كلّ ما بيده وبدأ بالجري خلفَه. وسقط الجميعُ ضاحكًا، فلا يخفى على الجميع السّجال الدّائم بهذا الصّدد في كلّ مباراة، وحتّى في حالة فوز الزمالك وطول الوقت، وهُم حقيقةً فاكهةُ الشارع، ومصدرُ العديد من النّوادر.

ابتسمتُ في حنينٍ وشجن لم أعهدهما بنفسي، فحين وصلت إليهم كان البدرُ قد توسّط كبدَ السماء، وكلّ استعادَ رونقَ الأيام، وأنا– ويا للْعجب– ما عدتُ أرى مَن أنا، فلم أعدْ أُدرك هل أنا طفلةُ هذا العهد؟! أم الشّابة التي كُنتها حينَ رحلت من هذا الشارعِ؟! أم ماذا؟! فما بعدَ ذلك اختفى تمامًا، فلا يهمّ فقط أنا الآن حيث أحِب، أمامَ منزلنا القديم، في المواجهة بمفصل الشّارعين. ووقفتُ أمام اختيارين؛ هل أتّجه يسارًا وأكمل باقي الشّارعِ كالعادة؟! أم ألتفّ حول المنزل لأذهبَ إلى مدخل المنزل في الخلف؟!

وكنتُ أظنّ أنه اختيار، فلقدِ احتوتني هالةً من الأقدار، فلا اختيار، فقط أسيرُ في اتجاه المدخل.

والتففتُ مع المنزل إلى الحارة، مارّةً بمنزل ابن الجيران، يا لها من ذكْرى برقتْ في ذهني أعادتْ للنوافذ المتهالكة بريقَ لوْنها الأخضر، ونظافةَ كلّ ما هو جديد، ووضعتْ طاولته الدائمة ومقعدَه في شرفته مواجهًا كلّ منزلي من الجانب، وكالعادة أطال النظرَ إليّ، وتسمّرت للحظةِ، فهنا في هذه النّقطة اللامرئيّة من العالم تعلّمت لغة الصّمت، وكيف أنه يبوحُ بأكثرِ ممّا يُخفي، وأعطيتُ ظهري له ولشرفته، فمنزلي على الناصية المقابلة، ولا

أدري كيف دائمًا ما كنت أراه حتى وإنْ أدرتُ له ظهري، والآن أتساءل بعدَ انقضاء الأيام، هل حقًّا كنت أراه حينها أم أنّ نظراته الثاقبة كانت تتخلل كلّ وجداني، وتجتاح حتّى مراكز الإبصار، وتسبقني لتراني وأراها، وأراني فيها؟!.

ولم تتركِ الأقدارُ لذهني حرية التذكّر طويلًا، فلقد لاحت لي "أمّ عادل" جارتنا هي، ولكنْ ريفيةٌ قُحّة، وكذلك منزلهم، وكان وجودُه غريبًا بينَ منازلنا، ولكنّه كان مصدرًا للعديد من مرحِ ومغامرات الطفولة الغرّاء، وانبلج شيطان الذكرى بطفوليةٍ، يبتسمُ متذكّرًا موسمَ حصاد الأرز والقمح، وكيف كان زوجُها عمّ "أبو عادل" الضّخم، صاحب اللون الأسمر، المصري الأصيل؛ يأتي ببالاتِ القشّ محمّلة فوق عربةٍ يجرّها حصانٌ قوي، كنت دائمًا آراه كأنّه عمّ إسماعيل "أبو عادل"، ويقوم برصّها في الشارعِ الجانبي، يملؤه تمامًا، وتعلو البالات حتى تصلَ إلى ارتفاع الجبال بمنْظورنا كأطفال، وكيف نطال الجبال!، كنّا نصعدُ إلى سطح منزلهم المكوّن من دورٍ واحد ونُلقي بأنفسنا على القشّ، ولا نكترثُ لحساسية أو مرض أو إصابة؛ فلا شيء يهمّ.. فإنّه موسم الإثارة.

لا أدري لمَ التلكّؤ؟!، فكلّ هذا الوقت كي أصلَ لمدخل منزلنا!، ألهذه الدرجة أهابُه؟!، أم هو قدرٌ لم يحنْ بَعد؟!، فماذا أنا فاعلة الآن؟.

صارَ مدخلُ المنزل عن يميني، استدرتُ ببطء، لم أكن أنا الفاعلة، هل حقًّا عندما يكون القدرُ حتميًّا فإنّه يخلق لدينا حاسّةً خاصّة به؟!، ويُصبح لدينا استشعار بأنّ قدرًا ما آتٍ؟!، حاسّة تُصيبنا ببصيرةٍ للقدر، وفي نفس اللحظة بعجزٍ تامّ عن اتّخاذ أيّ قرار يخالفه؟! أو حتى يعرقل مسيرتَه؟!، أيسخر منّا القدرُ ومِن عنفواننا وغرورنا وكبريائنا؟!، ويمارسُ هوايته في سحْقِ كلّ إرادةٍ ما عداه، فما مصيرُ الطيبين؟!، ولمَ التمعّن في إزهاقِ قدراتنا وآدميّتنا قبلَ الانقضاض على ما تبقّى منّا؟!

وسيّرتني يدُ القدر، ووضعتني في مواجهةٍ مع باب منزلنا القديم الجديد، المتهالك البرّاق، من الجلال كدتُ أخلعُ نعلي، ومِن الحنين ركضت، وبأحضانِه– كعادتي– ارتميت، ومسّني الوجلُ فارْتعدت، تُرى.. هل حقًّا دبّت الروح في حاسة القدر، ولهذا أخشى أن أمدّ يدي وأتقدّم؟!، تُرى.. ما القدرُ الكامن وراءَ هذا الباب العتيق؟!

سقوط (سحاب)

انفتح البابُ ببطء كمَن ينفضُ عن كاهِلهِ سنواتٍ من الانتظار وقد وهنَ منْه الأمل، رائحةٌ عجيبةٌ من خليطِ عطارة هندية، مصريّة، شامية؛ يستقبلها. نعم.. إنّه العَبَق المكوّن لخلفيةِ كلّ العطور بعُمرها، إنّه المخزنُ الدّائم لحانوت جَدّها العطّار، حسنِ السّمعة، شديدِ الصّمت، يعدّ من سنوات العمر كأكثر من حبّات مسْبحةٍ كاملة، فعائلتُه مُعمّرة، وتعتقدُ هي تمامًا أنّ الله يُطيل في أعْمارهِم لأنّهم الصّامتون، عُشّاق العمل. أخذت نفسًا عميقًا، فانسابَ العَبق بكلّ ذرّات جسدها، كأنّها الروح حين تتوغّل في الجسدِ لحظةَ الخلق الأوّل، وانطلق العنفوان يغزو أوصالَها، مُتحدّيًا وَجَل حاسّة القدر، وقفزت صاعدةً على درج المنْزل، فهي تحفظُهم جيدًا، فكمْ من مسابقاتِ قفزٍ أقاموها هنا صعودًا وهبوطًا، مُتدرّجين في الصّعوبةِ بعدد الدرجات وانحناءاتها، وانطلقتْ بسرعةٍ شديدة، فقد عادت الطفلة التي تفوزُ دائمًا، مارّة في صعودها بالدّورِ الأول حيث مشغل جَدّتها.. يا الله! كيف يتّسق صخبُه مع هدوءِ جدّها؟! لا تدري، ولم تُلقِ بالًا، فكلّ ذهبَ إلى بارئهِ، ولكنّها ترى ابتسامة جدّتها وهي تُدير كلّ هذا الكمّ من

العملِ والصّخب، والفتياتِ العاملاتِ لديها وحكاياتهم. لا، لا.. لن تلقي لهم بالًا، فالفيضُ الجاذب لها لمَخْبئها السرّي أقوى، وتصعدُ بلهفةٍ، مُلقية السلامّ على الدور الثاني- بيت عمّها- ثمّ بيتهم، تسارعت خطواتها شوقًا لمخبئها السحري. أخذت تُجَمّع كلّ درجتيْن أو ثلاث معًا قفزةً واحدة، كأنّها في إحدى مسابقات الماضي، وبإصرارها الدائم للفوز على الجميع، تساقطت سنواتُ عمرٍ مع كلّ قفزة، زادت نشاطًا وقوّة. وأخيرًا، ها هو وطنُها الأول، كوخٌ خشبيّ اسْتُخدم قبلًا كبُرجِ حمَام، ويبدو أنّ الحمَام ترك فيهِ من روحِهِ السّلامَ والسّكينة وعِشق الحميميّة، وغادره الحمَام بعد ما أودعه سرًّا؛ فقط لها. وبدأت السلّم الخشبي المؤدّي له، شاخصةً البصرَ، متأمّلة ملامحَه التي بدأت تكتملُ مع كلّ خطوةٍ، ألواحٌ خشبيّةٌ تآكلتْ منها طبقاتُ لون وروحٍ وتكوين، صارَ يتبدل من الرّصاصي المتآكل، العاري في بعضِ تفاصيله، إلى البنّي الزّاهي، إلى زمنها الأوّل، صرخةُ فرح تشُقّ أستار السماء، تهتِفُ باسمها: منى! هل أنتِ حقًّا هنا؟!

ارتعدتْ فرائصُها من المفاجأة، كادتْ تسقط، وجحظتْ عيناها، مُمتلئة بدمْعِ اللقاء، واختلطت كلّ عناصرها.

منى في دهشة فَرِحة: أنتَ؟! لا أصُدّق! أمازلتَ هُنا؟!

تبسّم في حنين: أنتظرك.

أطرقتْ سارحة: كُنتُ أراك كلّ يوم، كلّ صباح ومساء، عند كلّ بحْر، كلّ صحراء، وكُلّ زرعٍ، في كلّ أُفق، ولكنْ.. لستَ أنت.

قال في حزن: بل هو ما تبقّى منّي، أُرسِلَهُ إليك ليحرُسَكِ في كلّ مكان، يذكّرك بي.

تساءلتْ "منى" في دهشةٍ مُستنكرة: يُذكّرُني بك؟!، أنا أبدًا لم أنسَك، كيف أنسَى الرّفيق، الصديق، المُعلّم، كيف أنسَى أوّلَ احتواء، أوّل خيال، وأوّل كلّ الحكايات!؟

لماذا لم تأتِ أنتَ؟ هزمني احْتياجي لكَ طول العمر.

: حَرِصتُ أن أبقى أنا هُنا، أنتظرُك، أعلم أنّه يومًا ما ستأتي لي.. لنا. يومًا ما ستكونينَ حقًّا بحاجةٍ حقيقيّةٍ لنا معًا.

أطرقتْ باكية: احتجتُك كثيرًا، ناجيتُك، ابتهلتُ إلى الله أن أعود، كُنت أتمنّى العودةَ مثلما كنت، وليسَ كبقايا تبغي الالتئام.

قال في شغفٍ ولهفة: كيف حالُك حبيبتي؟!

هنا، انْهارتْ "منى"، وارْتمَت على قارعةِ السّطح، أمام كوخِهما الخشبيّ السّري. آه.. لوْ يعلم الآباءُ مدى احتياج أبنائهم للاحْتواء، لكلّ لحظة قُربٍ أو حضن، أو حتى سؤال.. كيف حالك؟! آه.. لوْ يعلمون كيف حالُ الاحتياج حين تتحوّل المشاعر إلى يتيمٍ يلتقطُ الولاية، فلِماذا يتعجّبون حين يرتبط طفلُهم بدُمْية حدّ المعايشة الكاملة!؟، أو يرتبط بمكانٍ أو حتى عادّة ولوِ احْتضان أصبعِه، أو حتى وسادته، أحيانًا يرتبط بشجرةٍ ما، أو نبْعِ ماء، أو حتّى حجر على قارعة الطريق، أو شاطئ بحر، فهو يجدُ في الحجر مثوًى لاحتياجه، أو على الأقلّ مُستمعًا له، غيرَ مؤنّبٍ أو مُعاقِب. أفيقوا أيها الآباء، فهنا ارتبطتْ "منى" بأشكالِ السّحب، وكعادتها في كلّ لقاء جمعَهما استلقتْ على ظهرها غيرَ عابئةٍ بالبَقايا المُلقاةِ على السّطح، ولا الأتربة، والقشّ، وغيرها.. فقط شاخصةً له، هذه المرّة غَشِيها البُكاء، وكادتْ تذهب في غيبوبةِ شقاء.

انْهارَ خوفًا عليها، أحاطَها بيديهِ، ضمّها، ترتجف بين يديه، تشهقُ من البكاء شهقاتٍ كالنازعات، يضُمّها بعنفِ السنين والعمرِ الذي مضى، جسدُها مازال دافئًا دفئًا أذهبَ عقله، دفئًا أذابَ برودةَ عمْره، أسقطها

قطراتٍ على صفحةِ وجهها الملائكي الحزين الباكي. يا الله! إنها لا تسْتجيب، لا مفرّ من مُداعباتِ الماضي الجميل، سِرّهُما الفريد. وانتفضَ "السحاب" مُرتجفًا، حتمًا ستعودينَ لي، لنْ أخسرك يومَ لقائنا الذي انتظرتُه طويلًا، وسخّرتُ عُمري لهُ، وعاشَ في السماء مضطربًا، مُناجيًا "مني"، مناديًا بأعلى صوتهِ، تُحبينَني هكذا؟! ونَشَرَ كلّ ريشتِه في السماءِ، يرسُم كلّ لوحةٍ أحبّتها وهي طفلة، كلّ حرفٍ علّمَه لها. سارَ مُسرعًا علّها تستجيب، وتباطأ في ذلّ العاشق عندَ الرحيل، وتسرّب اليأسُ إلى نفسهِ، بدأ الأفقُ يستعيدُ له كرامتَه، ويسحبه معه بعيدًا، وعند آخر أذيالِ التّلاشي جاءهُ صوتُها خافتًا وَهِنًا، صوتٌ يتمسّك به..

: لا تذهب.

"السحاب" مُختالًا فرحًا: عِشْقي، لن أذهب، فأنا هنا مادُمتُ حيًّا، ولكنّي خشيت أنك لا تريدينني.

وبنفْسِ الوَهَن وأشدّ، صرخ صوتها: أريدُك.

ناثرًا قطراتٍ من حنينٍ اقتربَ أكثر: زيديني، املئي عطشي، فلقدْ جفّف انتظارُك كلّ ما فيّ.

ازددتُ حزمًا ولهفة: احتويني أكثرَ وأكثر، يا كثرَ ما ناديتُك، تمنّيتك، وخفتُ أن أبوحِ بعشقي فينعتونني بالجنون، مَن قال إنّه لا بدّ أن يَعْشِقَ الإنسانُ إنسانًا؟!

وكعاشقٍ مُتبتّل يرتّل: أحبّك بعددِ مَن أظللْتُهم، ومَن أسقطتُ عليهم شتاء، ومَن أحييت بقطراتي، ومَن ذهب، ومَن.. ومَن، أُحِبّكِ ويكفي أن أقول لك إنّني... وهنا، أوقفت– بانتظارك– الزمنَ والسّماء.

أرختْ جفونها في سلام: أحِبّكَ، ووهبتُ لك هذه الكلمة، وهي كلّ كِياني، وفقط أدركُ الآن لمَ لمْ تصدُر منّي لبشرٍ، فليس بحنانِك أحد.

وانْهارَت "منى" في البكاء، فلقد أدركتِ الآنَ.. والآن فقط، أين توقّف قلبُها عن النّبض بكلمةِ الحبّ، يا له من جنونٍ مُطْبق، ولكنْ هناك دائمًا حقيقةٌ أغربُ من الخيال.

اختالَ السّحاب فرحًا، وابتسمَ ملء السماء، مَن كان يُصدّق! حقًّا.. إنّ الصبر دائمًا يأتي بالسعادةِ، هل حقًّا استطاع أن يوصِلَ لها ما بقلبِه؟!، هل حقًّا وجدَ همزةَ الوصل بين العوالم ليصلَ إلى قلب مَن أحبّها؟! لم يخطئ حين صدّق مجونَه وأحبّ إنسانةً، فاللهُ حين خلقَ الخلق؛ خلقَ أنواعًا

شتّى، ولكنْ كلنا مخلوقاته، وكُلّنا لنا حقّ برحْمتهِ، وقد وسِعَت رحمتُه كلّ شيء.

قال مُناجيًا: أُحبّك "منى" قدرَ الرّجاء.

ردّدت "منى" في اسْتنكار: يلومون دائمًا عشقي لألوانِك، عشقي للأبيض.. لك، وللأزرق، أنتَ والسماء، وهناك دائمًا ما ألقاكَ عندَ خطّ الأُفق على صفحةِ البحر.

قال مُلقيًا فرشتَه: فلنؤرّخ للحْظتنا هذه برقصةِ الحياةِ علنًا، نَخْلِقُ لنا برحمتِه بين العالمين حياة.

وهنا، أرسلتِ الشمسُ شعاعًا هادئًا ليُزَيّن اللقاء، وارتدى "السّحاب" حُلّتَه البيضاء الأنيقة، ناصعةَ الحنان، ومدّ يدَه يلتمسُ من "منى" يدَها لتبدأ رقصةُ الحياة، ودقّت موسيقى مِن أعماق السماء، وتأهّب جمعٌ لامرئيّ للمشاركةِ، وقامت "منى" ترفُلُ في الحنان، ترتدي ثوبًا من قلوبٍ بيضاء، وسارتْ إلى حافّة السطح، شاخصةً بحبّ إلى عِشقها في السّماء، وقفزت بِكُلّ عُنفوانها وشوقها، فلقد حانَ الوقت، وقتُ تحقّق ما اسْتشعَرَته حاسّةُ

القدر، وقفزت عاليًا مبتسمةً ابتسامةَ رضا، وعلتْ قدرَ ما استطاعت، ولكن...

ولأنّ القدرَ علينا حقّ، سقطت وعيناها شاخصةٌ، تترجى الحياةَ مع الحبّ والأحبّاء، وأيديها ممتدّة، تحلُم بالانتماء، ودمعةُ خُذلان بدأتْ تتكوّن على صفحةِ عينيها، فلقد بدأت تُدركُ حقيقةَ الأشياء، سقطت، مُرتطمةً بأرضِ شارعها، وطنها الأبدي.. سقطت مكانَ ما توقّفت مُرتعدةً أمامَ منزلها.. ألم أقُلْ لكم إنّها حاسّةُ القدر.. حاسّةٌ بلا رجاء.

عشرون ثانية

بدأتِ الشّمس تُرسل ضياءها على اسْتحياء، مُعلنةً الانتصار على الليل، واتّخذتِ العصافير موقعَها من الحياة، وتعالى صخبُ أحاديثها الصّباحية، وجاء عمّ "علي" كعادتهِ مع خيوط الصّباح الأولى، يفتتحُ حانوتَه الصّغير، ذا الموقع الإستراتيجي في هذا العالم؛ في الزاويةِ المقابلةِ مباشرةً للمنزلِ القديم، وشرَع في مَهمّتهِ باعتيادٍ فوقَ العادة، وكلّ موسيقى الشارع التّصويرية يعرفُها تمامًا، يكاد يُشارك العصافيرَ مناقشاتِها الحادّة؛ لأنّه يعرفهم واحدةً واحدة، والأشجارُ يُنظم مرورَ الرياح بين وريقاتها؛ فهو عمّ "على" أقدم حانوت في الشّارع، بل في الحي، يبيع السكاكرَ والحلوى وبعض السلع التّموينية، عنده عرفْنا "الكرملّة" بألوانها المتعددة، والموز الميرنج، الذي- ويا للعجب- يذوبُ بمجرّد ملامسة طرف اللّسان، وأشكالًا كانت تبدو كالسّحرِ لأطفال ذلك الوقت، ممّا جعلَه كالسّاحر في نظر الأطفال.

فجأة، لفت نَظَرَهُ تطايرُ العصافير في هَلعٍ، يصرخون في نوبةِ نُواح، التَفَتَ بعنفٍ مُلقيًا كلّ ما بيده، مُتطلّعًا إلى السّماء: يا ابنتي. هكذا صرخ عمّ "علي" بصوتٍ جَهْوري على غير عادته، فلقد وجدَ جسدَ "منى" وهو يهوي من أعلى. انطلق بأقصى سُرعةٍ مُحاولًا التقاطها، وأبطأه وهنُ السّنين، ونالت مِن حركتِه الحياة، وارتطمتْ أمامَه مباشرة، خرَّ على وجهها صارخًا: يا ابنتي، أنتِ بخير؟!، مُتجاهلًا كمّ الدماء، وصمْتَها وتهتّك روحِها.

منى، بصوتٍ واهنٍ من خلف الحياة: عمّ علي!

وزاغتْ عيناها متطلّعة إلى السماء، وهناك رأته.. رأت تميمتَها في الحياة، (حورس)؛ هناك على أعلى بناية في الشّارع، ينظرُ إليها نظرةَ مكْلوم، ملْهوف، مُعاتب، عيناه أصدقُ العيون وإنْ كانت بلا دمعٍ، تنظرُ عيناه بصرخةٍ مُؤَكّدة: أنا هنا حبيبتي، لكِ على الدّوام، وسأكون حاضرًا بأيّ عالم تكونين، وبأيّ حياة تَحيين، وبأيّ جسدْ تستكينُ روحنا؛ فأنا هناك. وشرع أجنحتَه حاميًا عينيْها من أشعّةِ الشمس التي بدأتْ في التودّد إلى المكان فيما يبدو فضولًا، ولكنه مسارُ الحياة.

صرخَ عمّ "علي"، تذكّرها؛ فقد كان يحبّها، فهي كانت من أكثرِ الأطفال شقاوةً وذكاءً وخجلًا. صرخ الرجلُ بكلّ قواه يستنجدُ بكلّ الجيران، صرخَ باسم كلّ مَن كانوا وماعادوا، تداعتْ كلّ الوجوه أمامَها، تعرفهم جميعًا، يحاول الطبيب منهم إعادتَها إلى الحياة، وتستنجدُ السّيدات بالله في دعاءٍ حثيث، ويُسرِعُ الشّباب في استدعاءِ الإسعاف، هي لا تدري كيف فجأة تذكّرت الجميع، وكيف اجتمعوا؛ فمنهم مَن هي على يقين بوفاتِه أو سَفره، ومنهم مَن ترك الشارعَ منذ عقود، عقلها يعملُ بشكلٍ فوق العادة، مع أنّها عادةً ما تُعمل العقلَ دائمًا، ولكنْ هذا جديدٌ تمامًا عليها، رؤيةٌ واضحةٌ لكلّ الوجوه.

لِمَ جسدُها مقيّدٌ، عاجزٌ عن الحركة؟! تحسّ الدماء تُغطّي وجهَها وجسدَها، تُريد أن تقوم فلا تستطيع الحِراك، تُريد أن تتكلّم، يُزعجُها صخبُ الومضات في رأسها، زخمٌ من الذكريات تتراءى واضحةً كالشّمس في ومضاتٍ تُزيغ النّظر، النظر!، هي غيرُ قادرة حتّى على تحريك حدقةِ العينِ! وهنا، أدركت "منى".. هنا، بدأ توقيتُ النهاية أو البداية، ويعمل عقلها وكعادتها تتملّك منه، وتُسيطرُ عليه، نعم.. هذه المرّة مختلفةٌ، إنّها حرفيًّا حياةٌ أو موت، أدركت أنّها سقطتْ وارتطمتْ وتوقّف القلبُ عن النبض، وانقطعَ التّنفس، وتحتاج للإنعاش الطبّي، تعلم كلّ التفاصيل،

فربّما– بلْ من المؤكّد أنّها– درست الطبَّ في مرحلةٍ ما في الزمن، لقد حانَ الوقت، أو الفرصة كما اعتادتْ أن تحوّل كلّ شيء لصالحها، الآن القرارُ بيدها، فقط أمامَها عشرون ثانية؛ هي الفترة التي يظلّ يعمل بها العقلُ كحدٍّ أقصى بعدَ وفاة الجسد، أو نُسمّيها توقف النبض والتنفّس، يعملُ العقلُ بأقصى طاقتِه البشرية، تلك المستحيلُ حدوثُها وهو على قيدِ الحياة، حسنًا، إنّه إذًا الوقتُ البرزخيّ حيث فقدَ التّوقيتُ الدنيوي وجودَه بالنّسبةِ لها، ولا توقيت أُخْرَوي مَعْلوم، ولا تدري.. أحقًّا من حقّها اتّخاذُ القرار بالعودة أو اللا عودة؟! وإنِ اتّخذت القرارَ فما أدواتُها لتنفيذه؟!.

هل تملك الإرادة والوعي لأخذ قرار؟!، ما عادت مثلُ هذه الأسئلة هي المهمّة الآن، فكعادتها تبدأ المُهمّة بمجرد أن تَلُوح لها بوادرُها، فتشحذ قُواها وأدواتها للقيام بها سريعًا، تحسّبًا لأيةِ مفاجآت، فلنجلس جميعًا لاتّخاذ القرار، أعودُ أو لا أعود، تطلّعت بزخمها العقلي ترى وسطَ الحشود صديقة طفولتها الجميلة؛ صاحبة الشعر الذهبي المعقود في ضفيرة رائعة البراءة، ودُميتها الغالية الثّمن التي تحتضنُها دائمًا، فنادتها منى: "عبير".. "عبير"، تعالي اندهي "هدى" وتعالوا بسرعة.

عبير: حاضر، بسّ لو "هدى" رفضت؟!

منى: يعني إيه رفضت؟! والله ما نلعب معاها تاني. قولي لها "منى" عاوزانا ضروري، ولو لقيتِ سالي أو داليا اسكتي تمامًا.

وتصيحُ "منى" مؤكّدة: يالّا بسرعة، مفيش وقت، هُم فقط عشرون ثانية.

"عبير" في صوتٍ مُهتمّ وهي تجري لأداء المهمّة: حاضر، حاضر.

واختفتْ عن العيان مُسرعة، كم هي مُطيعة، طفلةٌ جميلة الوجه، هادئة الطباع، لا تدخل في أيّ صراعات كباقي الأطفال. كان يُحير "منى" دائمًا لونُ عيني "عبير"، فهي الوحيدةُ التي تعرفُها لون عيونها أصفر، حقيقة أصفر، أي نعم.. ليس كأيّ أصفر عرفتْه بالحياة، فهو الأجملُ والأعمق على الإطلاق، "عبير" نفسها تتعجّب، ولكنْ ما الفرق؛ فكلّهم ملائكة صغار وأحبابُ الله.

وتستغلّ "منى" الطاقة القصوى المُمتعة التي يعمل بها العقل الآن، متعةٌ حقيقيةٌ بالنّسبةِ لها، مَن تختاره لينضمّ لها في اتّخاذ القرار؟!

"هدى" وإن كانتْ طفلة خفيفة الظلّ بطريقةٍ تصل إلى الخروجِ عن المألوف، لكنّها مُحبّبة جدًّا، ومطلوبةٌ بجنونها الطّفولي. وبدأتْ في

إستعراض كلّ الوجوه في حياتها، فلقد انطلقتْ ذاكرتها بشكلٍ قدريّ الطاقة، واصطدمت "منى" في طريقِ عقلها بنفسِها وحالها، هل حقًّا هناك مَن يستحقّ مُشاركتها القرار؟! هل حقًّا العودةُ للحياةِ قد تكون اختيارًا، فلو كانتْ حياتها تسيرُ بالشكل الذي يُرضيها فلمَ عادت هنا؟!، ولم تشبّثت بالحنين؟ إنّها فقدت كلّ توازنِها لتصل إلى هذه اللحظة، وكيف أنّ عقلها بكلّ هذا الزخم في الذاكرة لا ترى شيئًا عنها في سنّ أكبر هي متأكّدة أنّها عاشته؟!.

لم تَرَ "منى" مَن يستحقّ مُشاركتها القرار، فقط مجلس حرب الطّفولة، لا وقت للحيرة، إنّها ثوانٍ فقط، عشرون ثانية كحدّ أقصى لتُقرّر.. هل تعودُ إلى الحياة؟! وهل هُناك حقّ ما أو مَن يستحقّ؟!.

والسّؤال الأدعى.. هل لديها الآنَ قُدرة اتّخاذ القرار؟!.

١٩ ثانية

طَفّي النور يا وليّة

ده احْنا عساكر دوريّة

إحْنا عساكر وانْتوا حراميّة

ويبدأ فريقُ الأطفال (الحرامية) في الجري والاستخفاء من فريقِ العساكر، وتبدأ المطاردةُ تشتدّ، والأطفال يلعبونها تارة عسكر وحرامية، وتارةُ أخرى الأستغماية، وقمّة السعادة حين تلمسُ أيديهم الجدارَ المسمّى بالأومّة، أو الأمان، لم يُعلمهم أحدٌ قوانينَ أو تفاصيل الألعاب؛ فكلّها موروثات شارعية، وعادةً ما ينقسم الشارعُ إلى فريقين؛ فريق بنات، وفريق أولاد، ويكون التحدّي الدّائم كأنّه تنبّؤٌ بمسارِ الحياة، وهنا فريق البنات: منى، عبير، هدى، أماني، غادة؛ هنّ الأساسيات كلّ يوم، وينضمّ الآخرون بصفةٍ غير دائمة، وهناك (داليا سراج)؛ المتفرّجُ الدّائم لكلّ ما يدور في الشارعِ من ألعاب، أبدًا لم نرَ والديْها؛ فهي تُقيم مع عمّتها كما تُناديها، كانت

دائمًا تتطلّع إلينا من الشرفة، ويملأ نظرتها الشوقُ للاندماجِ معنا، ولكنّها دائمًا مُهَندمة، وكنّا ننبهر كيف تقوم بتغيير لونِ شعْرها، كمْ كُنّا سُذّج، ولأنّ بيتها تمامًا مُقابلُ بيت "هدى" فلقد أتتْ لنا "هدى" بالخبرِ اليقين: أصل مامتها مُضيفة.

ونتبادلُ المعلومة في غموضٍ وصمتٍ للآن، لا أدري لم!؟ ولكنْ أظنّ أنّه قانونُ العيب الذي دائمًا ما كان يفوق الحرام، وما العيب في ذلك!؟ لم نعلَم. ولأنّنا لم نعلَم فهو العيب إذًا، إنّه قانونُ الجهل. ثمّ يأتي فريقُ الأولاد: محمد، هانئ، باسم، تامر، خالد، الأساسيّين. وتبدأ المُشاحناتُ؛ دائمًا ما كانت "عبير" ترفضُ المشاركة، فهي لا تُحبّ الاحتكاك، وتخشى العِراك، في حين كانت "منى" تتصدّر كلّ لعبة ومشهدٍ وفريق، قائدةٌ ومتعدّية إذا لزمَ الأمر، فلقد أخذتْ على عاتقها رفعَ لواء الفتيات، وحماية الضّعيفات منْهن، وتشاركها "هدى"، حيث كان والدُها مدرّسَ ابتدائي لمعظم أولاد الشارع، فكانت ذات سطوةٍ، بالإضافة لشخصيّتها الساحرة المغامرة اللطيفة، "أماني" هي ابنة الترزي، الذي يعرف كلّ الأخبار، ويتحدث في كلّ شيء بلا حسابٍ أو حياء، مِثلُه مثلُ عمّ عوض الحلاق، كنّا نخشاها لأنّها تتعدّى حدودَ الحديث، لا نعرفها ولا نحبّذها.

ماذا سنلعبُ؟ صوتٌ طفولي قيادي ينبعث من وسط حشد الأطفال. وهنا تختلفُ الألعابُ حسب المواسم؛ ففي الصيف كلّ الألعاب مُتاحة: السبع بلاطات، صائد الحمام، الأولى، البلي، أو تجميع (الكازوز)؛ أغطية زجاجات المشروبات الغازية، ويتمّ إحداثُ ثُقبٍ في منتصف كلّ غطاء، وضمّهم على شكل دائرة بواسطةِ سلك، وهي أولى خطوات الدراجة اليدوية الصنع، حالُها حالُ الدّمية والنول، وكلّ ألعابنا في هذا الزمن؛ صناعة يدوية. وفي الشتاء، يصعُب الجري خشيةَ الانزلاق، فتكون المَغاريز لعبة طينية مُفضّلة، وهي عبارة عن أخشاب تُسنّ أحرُفها كالحِراب، ويبدأ الأطفال في رشْقها في الأرض اللينة، وكلّ يحاولُ إسقاطَ عصا الآخر، ومَن تصمُد عصاه أو مغرازه للآخر؛ فهو الفائز، ويدور الأطفالُ في فلكٍ مِن لهْو، وصخب وضجيج، وفرح وضحكات، وأحيانًا مشاحنات ودموع، ويبدأ الليلُ في الزحف على فرحهم، وبالتوالي يبدأ كلّ بيت بالنداء على أولادهِ. هانئ ووسيم أوّلُ التاركين لنا؛ فبيتُهم يتّسم بالهدوء الشّديد والالتزام، ويبدأ الجمعُ في الانفراط، ويبدأ الليلُ بحكاياتٍ أخرى، يتجمّع الأطفال على مصطبةِ أحد البيوت، وغالبًا ما كانت "داليا" تُشاركنا في الجلسات الجماعيّة المستقرّة هذه، التي عادةً تكون عِند منزل الأستاذ "عبد الوهاب"، فدرجاتُ السّلم أمامه كبيرةٌ

ودائرية، وتتّسع للجميع، وتبدأ "هدى" في ممارسةِ خيالها الدّائم على الأطفال.

"هدى" في صوتٍ هامس أشبه بالفحيح: عارفين الخرابة اللّي ورا دي؟! إوعوا تمشوا فيها بالليل.

ويبدأ انتباهُ الأطفال لها، وتبرقُ عيونهم فضولًا للمعرفة.

"عبير" بارتيابٍ وخوف أضحى كلّ ما تحملُه بداخلها لأحاديث "هدى": ليه يا"هدى"؟!

انبرى "تامر" مُتحدّيًا: هامشي عادي، هوّ أنا هاخاف!

هدى: آه خاف، شفتوا الشباك السّلك اللّي باين من ضهر البيت اللّي هناك؟ تعالوا باللّيل شويّة نبصّ عليه، هاتلاقوا واحدة ماسكة شمعة، ورايحة جاية، وبتصرخ.

ويصمتُ الجميع خوفًا، وتبتسم "هدى" في لؤمٍ، وتُقرر الإمعانَ في إخافتهم.

"هدى" محاولةً إضفاء بعضِ الجديّة على صوتها: دي واحدة كانتْ في سنّنا كده، ومسكتِ الشّمعة ولّعتها، وفجأة..

ثمّ زادت من نبرةِ صوتها كأنّها صرخة رعب: (ولّعت فيها النار).

وشهقَ الأطفال في ذعْر: وبعدين!؟.

هدى: البنت كانت لوحْدها في البيت، وفضلتْ تصرّخ.. تصرخ، وماحدّش لحقها، وماتت. عشان كده كلّ يوم في الوقت ده بتقعد تصرخ، وبتيجي عند الشباك.

"عبير" تُخبّئ وجهَها من الرعب في دُميتها التي لا تفارقها، وتكاد تبكي.

تامر مُشكّكًا: أنتِ كدّابة.

"منى" كعادتها تنظرُ خلفَ الحدث حيث لا أحد آخر: ليه كانت لوحْدها لو هيّ قدّنا!؟ إحنا صغيّرين.

"هدى" محاولةً إقناعَ "منى" فهي تعرفها؛ لن تتركَ لها مجالًا لأبعدَ من شيء منطقي: عشان أهلها مش بيحبّوها كانت بتزعِجْهم وهمّا خارجين، اليوم ده خرجوا وسابوها.

"داليا" في تأكيدٍ واهٍ: أنا ماما بتحبّني، وبرضه سايباني على طول، هوّ أنا ممكن أتحرق كده!؟ قالتها في يأسٍ طفلة لا تعلمُ حتى لِمَ هي في هذا الوضع المختلف! هل يتّسق الحبُّ والترك؟!.

وهنا، أضاء جرسُ إنذارٍ بداخل "منى"، هل حقًّا مِن الممكن أنْ ينزعج أهلٌ مِن أطفالهم لدرجةِ تركِهم، وبدون معامل أمان، لدرجة الحرق؟! الموت!، وارتعدتْ نفسيًّا من مجرد الفكرة، وهزّت رأسَها بعنفٍ لتطردَ هذه الفكرة، كأيّ طفلة رافضة، هزّت رأسَها بعنفٍ شديد، ولكنّ الفكرة لم تختَفِ، ولم تسقُط من رأسِها إلّا لتستوطنَ روحها، ومسّت رصيد أمانها.

"تامر" مُشيحًا بوجهه: بسّ.. بسّ، أنت بتضحكي علينا، وتعالي.. إحنا بالليل نمشي للخرابة.

والتفتَ موجّهًا كلامَهُ للأطفال: يالّا بينا. وكان أصغرَ الأطفال تقريبًا.

"عبير" مُحتميةً بدُميتها، وقدماها متشبّثة بالأرض: لأ. أنا خايفة.

وابتسمتْ "هدى"؛ فها هي تمكّنت من إحدانا، وقام بقية الأطفال في محاولةٍ للشجاعة، وكانت الخرابة خطوتين خلفَ منزل الأستاذ عبد الوهاب. وأحسّت "هدى" أن هيبتها ستنهار، فهي لا تعلمُ صِدقَ الرّواية من الأساس، واقترب الأطفالُ من المكان، وبدتِ الخرابة حقًّا موحشة، وجدران المباني الخلفية تُطلّ عليها بطوبِها الأحمر، يُشوّهها نشع مياه على الجدران، ومواسير تتسلّقها في بؤسٍ حقيقي، وفجأة أضاءَ أحدُ السكان ضوءًا خافتًا في أحدِ الشبابيك، وهنا وجدت "هدى" فرصتَها وصرخت: أهي البنت، أهي جت. وانْهارَ جميعُ الأطفال في صراخٍ ورعب، فلم يروا شيئًا، ولكنّها رهبة الظّلام، ووحشة المكان، وخُفُوتُ الضوء، وسطوع لؤم "هدى"، وهربَ الجميعُ في ذعرٍ حقيقي.

وهكذا كلّ يوم كانت "هدى" تُجمع الأطفال في سمرٍ ليليّ لتؤلّف لهم قصة رعبٍ كالعادة، والنّهاية دائمًا العودةُ إلى منازلهم بالجري رعبًا.

حقيقةً، إنّ العقل الجمعي يتكوّن من صوتٍ واحد، ويتمكّن من رسْم الصّورة التي يُريدها ويزرعُها في مجموعِ من العقول المؤهّلة لذلك،

فالأطفالُ يبحثون عن الإثارة بعدَ يوم اعتياديّ مِن الألعاب، ويجب أن يُصدّقوا الحدث حتى يكون اليومُ مختلفًا، وبدون أنْ يعوا، فإنّ أرواحهم تتلاقى، وشخصياتهم تبدأ في التّكوين مِن هذه المفردات الصغيرة، فاحْذروا ألعابَ الأطفال، ومع مَن يلعبونها، فلا تسخروا من المفردات البسيطة؛ فإنّها هي نحنُ بعدما تتمكّن منّا، وتنمو بداخلنا، ترْوينا فتُنبِتنا.

تُرى كمْ مِن الضربات يتلقّاها وجدانُنا ونحن أطفال؟!، وهل إن نسيناها ستنسانا، أم تقودُنا وتُقيّدنا في مستقبلنا؟!، سنرى...

١٨ ثانية

زخمٌ شعوري يجتاحُ عقلها، كيف يستطيع عقلٌ العملَ بهذه الطّاقة المُذهلة، كانت تعتقد أنّها تُعمل عقلها بأقصى طاقة، ولكنّها تدرك الآنَ عكسَ ذلك تمامًا، صورٌ وأفلام وذكريات وأصواتٌ كثيرة، كلّها لها القدرةُ على الحضور في نفس التّوقيت معًا كآلة زمنية في إعصارِ عودتها، رياحٌ تستعبد ذراتِ الأحداث، وتُعيدها قسرًا، ويتعالى صوتٌ يفرض وجودَه بينَ الحشد الشعوري..

بسم الله. اللهُ أكبر. بسم الله، بسم الله

سينا يا سينا، بسم الله بسم الله.

وآدينا عدّينا، بسم الله بسم الله.

صوتٌ جَهْوري طفولي يهتفُ بالنشيد في طابور الصباح، إنه نشيدُ الصباح في تلك الحقبة لكلّ المدارس، تتصدر "منى" المشهدَ في تحيّةِ العلم، تشدّ ظهرَها بكلّ أهمية واهتمام، ترفع يدَها وتهتف (تحيا جمهورية مصر

العربية) ثلاثَ مرّات، صوتُها يُنذر الجميعَ أنِ اهتفوا من قلوبكم، وتهتف كلّ صفوف مدرستِها الابتدائية، كان حوشُ المدرسة بلا أسوار، يقع بين حدودٍ جغرافية ترسمُ مُلخّص الحياة؛ على اليمين مبنى الدّراسة ببابهِ الخشبي المُتهالك، في المواجهةِ منزلٌ مكوّن من طابقيْن، مدخلُه بهِ ثلاثُ درجات من السلّم، تتّخذه المدرسة منْبرًا لطقوس الصّباح من إذاعة بلا ميكروفون، وعلى اليسار كان المسجد، والخلف كانت الدنيا الواسعة، أوّل وجدان الحرية، فلا أسوار إلى مكان متّسع بشكل غير منطقي. بدأت موسيقى الصّعود الى الفصول الدراسية، وها هو أستاذ "أحمد حليم" مدرّسُ التربية المنزلية على غير عادةِ مَن يدرّسونها، فهو مَهيبُ الطول، يرتدي صيفًا وشتاءً بالطو من الصوف أسودَ اللون، وبيده عصًا تُثيرُ الرعب في نفوس الأطفال، لا أتذكّر يومًا أنّه استخدمها، ويبدأ يومٌ دراسي مُعتاد، إلى أن يحينَ جرسُ الفسحةُ، كأنّهُ يومُ الحشر إلى الجنة، ورضوان يُرحّب بأحباب الله، ينطلق الأطفالُ إلى البراح المُتاخم للمدْرسة؛ مدرسة "سيدي شيمر الابتدائية المشتركة"، ليس مجرّد اسم؛ فمقامُ سيّدهم شيمر كان هناك في أقصى اليمين، درجاتُ سُلّمه واسعةٌ جدًّا بالنّسبةِ للأطفال، يصعدونها قفزًا، إلى مكان مُعبّد مكشوف، به ثلاثُ غُرف، يحدّ من اقتحامهم لها أسوارٌ حديدية وإنْ كان ارتفاعها لا يعْدو نصفَ المتر،

ولكنّها بالنّسبة لهم حدٌّ فاصل، فلا اقتراب، فهذا مقامُ العارف بالله "سيدي شيمر"، ولم يتساءل الأطفال أبدًا كيف هُم ثلاثُ غرف لمقامٍ واحد؟!، فلا يهمّهم أهو "سيدي شيمر" أم "عائلة شيمر"، جُلّ همّهم هو التزحلقُ من خلف المقام على مُنحدرٍ عَبَّدَتْهُ أقدامُهم الصغيرة على تهدّمٍ لم يُرمّم من المبنى، وكانت لعبتَهم المفضّلة، وأولى مفردات الملاهي البريئة الصّنع، ومغامرة على حساب هيبةِ الموت في قلوبهم.

وكانت "أمّ ألحاظ" مُتعهّدة الأطعمة المكشوفة والحلوى الفقيرة التنوّع، فكلّ فسحةٍ ينسَى الأطفالُ تحذيرَ أمّهاتهم من أكلها المكْشوف، وكمْ كانت تُغريهم ثمراتُ التّفاح غيرُ الناضجة المَغْموسة الطّرف في سُكّر ملوّن عادةً أحمر صارخ يُثير فرحتَهم الطفولية، هنا تكوّنت شلّة ابتدائي؛ "إيناس" ابنة عضو مجلس الشعب الذي يُحبّه الجميع، واكتسبت من هنا قوّة خاصّة هي نفسُها لا تعرفها، ولكنّها تتصرف على أساس أنّ هناك شيئًا ما مختلفًا. "نهلة" ابنة إحدى مدرّسات المدرسة، وهذا مصدرٌ آخر من القوّة، وكانت في منتهى الرقة والطفولة. وهناك "عبير" رفيقة الجيرة. وعامّة الشّعب الطفولي، فهذا "عوض" يُباري الجميعَ في كيفية ثني أصابعِه للخلف حتى تُلامسَ ظاهرَ يده، وأن يَثني آخرَ عُقلة أصبع له للأمام، كان كالسّاحر يُبهر الجميع، ولا أحد يستطيع تحدّيه، كانت فقرة يوميّة،

وكانت "منى" تتحدّاه يوميًّا حتّى استطاعت فقط أن تثني عقلاتها، ودأبتْ عليها تتمرّن في عنف حتى استطاعت، وصارَ تشوّهًا في أصابعها، ولكنْ لا يهمّ؛ فهي (تستطيع).

كلّ فسحةٍ يجتمعُ الأطفال تحتَ شجرةٍ هي كلّ خضرة المكان، وهي تملأ المكان، فلديْها من الأعوام ما يفوقُ أعمارهم مُجْتمعة، فما عاد يعرف أهذا ساقها أم فرعها أم جذرها، كوجهِ عجوزٍ ضربَ في عمق السّنين حتى ما عاد الناظرُ إليه يُجزم هل هو وجْهُ رجلٍ أو إمرأة، وقد يحْدُونا العجبُ.. هل هو حقًّا وجهٌ كان يومًا لإنسان؟!

تركيبةٌ غريبة من كلّ المستويات المادية والاجتماعية، ولكن هنا في منتصف السبعينيّات كان جميعُ الطلاب في مدرسة واحدة يرتدون زيًّا موحّدًا، كُنّا جميعًا أطفالًا فقط، وداخل أروقة الدّروس كنّا مُتميّزين جميعًا، وتبرق في الذاكرة السبورة أمامَها أُستاذ "أحمد حليم" يُدرّس لنا الدين، بصوتهِ الحازم، وخطّه الرائع يكتب وهو يقول:

"كلمتان خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان للرحمن؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".

ونردّد وراءه في وَجَل، فوحده كان القادرَ على إرهابنا وطمأنَتِنا، وتشكيلِ وجداننا، كان أبًا لم ينجبْ أطفالًا، فتبنّانا جميعًا، شكّل منّا جماعاتٍ للعمل، وكان يحرصُ أن يجد كلّ منّا على قدْرِ مصْروفه القليل وجبةً غذائية مُفيدة في الفسحة، مُتحدّيًا جبروتَ "أمّ ألحاظ " وسطوتها، فكان هناك بجوار السّلم طاولة عليها موقدٌ أو اثنان، دائمًا عليه قِدْرٌ كبير من اللّبن يصنع لنا ومعنا أطباقًا مميّزة لتُباع في الفسحة، وبقرش أو اثنين، وكان في كلّ يوم يأخذنا لصلاةِ الظهر بالمسجد، لم يُجبرْ أحدًا يومًا، ولكنّنا كنّا نهابُه، نهاب صدقَه وإيمانه بدون أنْ نعي، كيف كان هذا الرجل، وكيف أصبح بداخلنا جميعًا؟!، أعلم أنّه توفّي، ولكنّه الآن أمامي شاخصًا مهيبًا يُحاورنا..

أستاذ أحمد: إنّ الحجاب يجبُ ارتداؤه على كلّ الفتيات عند سنّ معينة.

"إيناس" وحقًّا تبدو جادّة: سنّ كم سنة يا أستاذ؟

كان من التأدّب والعبقرية، ومِن حياء الآباء– الذي أختلف معه عليه– أنْ ردّ في صوتٍ ثابت، ولكنّه حذِر: هو سنّ أكبر منكنّ قليلًا.

تساءلت "إيناس" بعفويّةٍ وسذاجةٍ جميلة: ولماذا؟ فماما أكبرُ منّي، ولا ترتدي الحجاب!

وقد تأكّدت مخاوفُه، استطرد أستاذ أحمد في بساطة: قد تكون لا تعلم، فعليكِ إخبارُها، فهي أمّك، وبالتأكيد تريدينها معك في الجنة.

"إيناس" بعنفٍ طفولي: ماما جميلة، وهاتروحِ الجنة طبعًا.

تلقّف المعلم الأبُ "إيناس" وغضبَها في حنكةٍ: طبعًا لأنها جميلة، ولأنّك جميلة، فلا بدّ من الالتزام بتعاليم الإسلام، حتى تدخلوا الجنة لأنّكم تستحقّونها.

ونظرتْ "داليا" شَذرًا مؤكّدة عدمَ صدق ما يقولُه أستاذهم: أنا ماما مش محجّبة ومش هاتروحِ النار أصلًا.

أستاذ أحمد: إزّاي ده يا داليا! وعرفتِ منين؟. استطردتْ "داليا" فى يقين: ماما أصلًا كلّ يوم بتطلع السّما عند ربنا وتنزل عادي، وربّنا مش بيعمل لها حاجة.

ابتسمَ الأستاذ "أحمد حليم"؛ فهو يعلم ظروف داليا العائلية، ولا يريدُ أن يمسّ صورة الأهل لديها، أو لدى أيّ من تلاميذه، فقال مُعقّبًا: طيب انتِ بسّ قولي لماما وهي هاتسمع الكلام وتبوسك كمان.

وهنا، انبرى صوتٌ عفوي عصبي: أنا مش هالبسه خالص. وانخرطتْ صاحبتُه في البكاء.

مهدّئًا روْعها، وفي بساطة سألها الأستاذ: ليه يا نهلة!؟

أجابتْ "نهلة" في حزن: عشان شعْري جميل، وأنا باحبّ أسرّحه، وأحطّ فيه شرائط ملونة.

وأخذتْ في البكاء محدّثة نفسَها بصوتٍ مرتفع: بسّ أنا عاوزه أروح الجنّة مع أصحابي.

وهنا، أحسّ "أستاذ أحمد" أنّه ضغطَ على الأطفال بأكثر ممّا ينبغي، فتبسّط معها على غير عادته لنا، وبدون أن يُغيّر شيئًا ممّا قاله، قال لها: أنتِ حقًّا جميلة، وشعرك رائع، وكلّ الأطفال سيدخلونَ الجنّة؛ فهُم أحباب الله. وشعرك سيكون أجمل، وأجمل كثيرًا في الجنة.

ومِن بين دموعها، رفعتْ عينيها متساءلة في شكّ عظيم، وبفرحةٍ أعظم: بجد؟!.

أجابها أستاذ أحمد بلغتِهِ الفصحى الذي كان مُصرًّا على التحدثِ بها: حقًّا وصدقًا.

فتلألأتْ عينها من خلف دموعها بفرحةٍ عارمة، وقبل أن تقول شيئًا، سمعوا صوتَ "عوض" بصوتِه الساخر، وهو هبتُه من الطبيعة: أنا هالبس الحجاب.

ويضجّ الفصلُ بالضحك، ليس لأنّهم يعلمون أنّه ولد، وأنّ الحديثَ عن الفتيات، فهُم لم يدركوا بعْد، ولكنّه ضحكٌ على صوتِه، وطريقتِه المميّزة في الإلقاء، فقد قام يقولها بحدّةٍ وهو يتراقصُ كأنّه سيكون له السّبق، ويعلمون تمامًا عقابَه الذي يناله من أستاذ أحمد كلّ مرّة، ولا يتعلّم؛ فقدراته محدودة، وحدثَ بالفعل، وأخذ يجري بين المقاعد مُتحاشيًا عصا أستاذ أحمد. لم تشاركْ "منى" في الحوار؛ فهي تتابع في تركيز، لا تدركُ كلّ الأبعاد، ولكنّها تدرك أنّ عليها التزامًا لا بدّ من القيام به، وتذكرُ جيدًا الجدلَ الذي دار بمنزلها، فبالرغم من أنه منزل عائلةٍ كبيرة، وهي أصغرُهم

جميعًا، فلم ترتدِ أيّ من قاطنيه الحجابَ بعْد، وبالرغم من استنكار الجميع لها فلقد عادت اليوم التّالي إلى المدرسة وهي تلبس الحجاب.

ويمرّ أمامها جميعُ معلّميها الأفاضل، بالفعل كانوا آباءً وأمهاتٍ لكلّ الأطفال، مهْما بلغت قسوتهم– أو هكذا كنّا نظُنها في حينها– فكانوا مُربّين، تمنّت لو يمتدّ بها العمر فتعود بالذكرى تُقبّل أيديهم جميعًا، وأرجلهم؛ أن تفضّلوا عليها، تذكرت كيف كانت تُقام المسابقاتُ والتحديات بين الأطفال دراسيًّا، وتشجيعهم، وكيف كان العام كله مشحونًا بالعمل والمتعة، شتاءً المدرسة، وصيفًا؛ فالمسجد هو المدرسةُ وهو الأخلاق، والمسابقات وتحفيظ القرآن، كيف كانت كلّ أيامها نجاحات وتحديات وحبًّا، كان الأمانُ المطلق، فهي ابنة أحد المعلمين في هذه المدرسة، الأكثر بينَ المعلمين الذي يُحبّه الأطفال، ويتمنّون أن يُدَرّس لهم يومًا، كم اعتقدت أنّها قوية في حدّ ذاتِها، وأنّ وجود والدها– برغم عظيم حبّها له– هو تشكيك في قدراتِها؛ فهي وحدها تستطيع كلّ التحديات، وكانت الأقدر على الإطلاق في مدرستها، هكذا كان ظنّها، إلى أنِ اصْطدمت بواقعٍ غيّر كلّ مفاهيمها، واجتاحت رياح الخليج مُعظم بيوت المصريّين. تمرّ الآن أمامها صورتها بفستانها الطويل الأكمام، الفِضْفاض، وحجابها البسيط في آخر أيام المرحله الابتدائية، فلقدْ سافر

الأبُ بعد حسابات ماديّة مُتعمّقة، فالسفر هو الخيار الأفضلُ للجميع من وجهة نظر مُتّخذي القرار، لم يكنْ قرارها، تذكرُ جيدًا، فالآن عينُها في عينها ترى دمعة طفلةٍ متحجرة بالرّجاء: أبي، بابا، لا تتركنا، فلا شيء ينقصنا.

وهنا، انْهارَ كلّ معنى للأمان، وأدركت أن كلّ قدراتها على التحدّي والبقاء موصولةٌ بوالدها، واغتُصب كلّ أمانها، مات الأمانُ على أيدٍ تدّعي الحبّ: بابا، أرجوك، أبوس إيدك. وشهقت شهقةً ارتجّ لها الجسد، لا تدري أيّ جسد فيهم، ولكنّه.. إزهاقُ روح في كلّ الأحوال؛ روحها أو روح أمانها.. لا فرق، وسكن كلّ شيء.

لا، لم أمتْ بعد. قالتها "منى" مُحدّثة نفسها، فمازلتُ لا أستطيع أخذَ القرار.

أبي ساعدني، مازالَ أمامنا بعض الوقت، ليس كثيرًا ولكنّه كافٍ حتّى للذكرى، فكلّ شيء الآنَ متاح، مباح، فقط احتضنّي، كي يعودَ لي الأمان، هل من الممكن أن يعود الموتى؟!

وهل يكفي الأمان كمُفردة للعودة؟! قد يكون.

١٧ ثانية

وتتلألأ على قمّةِ آخر منزلٍ في زاوية الشارع تميمتُها، مازال هناك يرقُبها. نعم.. إنّه هو؛ بلونهِ الأسمر الذي تعشقُه، وقوّته الطّاغية، وعيونه الثّاقبة، دائمًا ما كانت تشعر به حتى تكاد تشعرُ أنّها هو. في مكانٍ آخر، وزمنٍ آخر، وجسدٍ آخر، كيف وهو "هو"! إنّ علاقتَهما مَن علّمتها أنّ الروح واحدة، وليس هناك روحُ أنثى وروحُ ذكر، لم تُخبر عنْه أحدًا، ولا هي نفسها؛ فهي لا تعرفُ متى بدأتْ هذه العلاقة، فهي تسري منها كسَرَيان الرّوح في الرّوح، وتأكّدت حين كانت في المرحلة الجامعية، وهي أوّلُ ما استطاعت أن تخُطّ الكحل، فتربيتها صارمةٌ فوقَ الاحتمال والمنطق، وتَلَبّس هو مِرود كُحلها، ووشم جفنِها باسْمه، ومنحَها عينيه، حينها لقّبوها باسمه، "حورس" فهل كانوا يعلمون؟! أم كانت اللغة أوضحَ ما تكون؟!. لم يصدمْها الاسم، بل منحَها أمانًا سحريًّا لطالما تمتّعت به. نعم.. إنّه نحن، قوّة فرعونية تملّكتها، ليست لعنة، ولكنْ منحة إلهية تحتاجُها وتجْتاحها، فـ "حورس" بقوّته وبصرِه الثاقب الذي يرى كلّ شيء، ويُريَه لها، ويجتمعان معًا ليقُصّا كلّ الحكايا؛ ما له الآنَ وعينُه تلمعُ بريقًا دامعًا مختلفًا، ويُشرِع

أجنحتَه عبرَ السّماء، لهفة عليها أم استعدادًا لانطلاقة جديدةٍ لهما؟ يُرفرف بعنفٍ كأمّ تُريد إنقاذَ ابن لها يلفظ آخر أنفاسِه. غقغقةٌ ثكلى تشقّ عنانَ الكون: أدركوني. وتستجيب السّماء، ويردّ الصدى بصوتِ سيارة إسعاف مُسرعة، وفي لا وقت يترجّل المسعفون...

أفسحوا الطريق

.. وتتّسع الدائرةُ حولها، ويحتلّها المسعفون بأدواتهم، هي تُدرك كلّ التفاصيل، تكادُ تُملي عليهم ما يفعلون.

يُسلّط أحدُهم شعاعَ ضوء على عينها ليرى تفاعل الحدقة.

صوتُ مُسعفٍ في جديّة تامّة: الحدقة مُتفاعلة.

ويواليه الآخرُ بحالة النبض: النبضُ بالكاد يُسمَع.

وتتوالى أخبارُ حالتها الحيوية: الضّغط في هبوطٍ حاد.

ويقومون بمحاولةِ إنعاش للقلب؛ هو عملهم، ولكنهم لا يدركون؛ فالقلبُ قد تخلّى عن وظيفتِه منذ عقود؛ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة..

ضغطاتٌ على القلب.. ثمّ تنفّس اصطناعى، يدْعونه قبلةَ الحياة، ولكنْ.. لا حياة.

وفي حزمٍ لإنقاذِها يصلها صوتُ أحدِ المُسعفين: هات جهاز صدماتِ القلب.

ويلبّيه في اقتضاب: حاضر.

مُسعف مُمسكًا بطرفي الجهاز: جاهز.

يؤكّد الآخر موقعَه: جاهز.

مُسعف: ابتعد.

ويُرسل دفقةً كهربائيةً عنيفة، ينتفضُ لها الجسد، وتصطدم بتدفّق العقل، صراعٌ يحتدم، هل أعود؟! ويستغلّ القلب حيرة العقل، وتهربُ من شباكهِ نبضة، نبضةٌ واحدة، أحيتِ الأمل في الجموع، ورقصَ "حورس" فَرِحًا في السماء، وأضافت عبء الاستمرار على المُسْعفين، ويا لها من نبضة؛ نبضةٌ حملت ذاكرةَ القلب المُختزنة، الممتلئة بأسرارٍ كانت قد فقدتها،

فها هو وجهُ قريبتها الرّيفية، تذكُرُه جيدًا؛ فهي مليحةُ الوجه كأجملِ مِن أيّة نجمةٍ سينمائية، تقول لها في جُرأة حذرة في إحدى زيارتها للريف.

سميرة في صوتٍ خفيض: اسكتي، هاقولّك حاجة بسّ ما تقوليش لحدّ دلوقتِ.

منى وهي مُتعجبة من نبرة الصوتِ غير الاعتيادية: حاضر... في براءةٍ غير عادية، بالرّغم من أنّها في الصف الثالث الإعدادي.

وباحتْ لها "سميرة" بالأمْر الجَلل: عندي لك عريس، شافك امبارح معايا، وكلّمني، ومُستعدّ لأيّ طلب، بسّ توافقي.

رفعتْ "منى " حاجبيْها بدهشة: إزّاي يعني؟! ومن ده؟!

سميرة مُكملة نبرةَ السّرية: المحامي (فلان).

وهنا، ذابت معانٍ كثيرة، فهل هذا هو الريفُ بتقاليدهِ ومعناه الخلّاب الذي تحملُه له؟!؛ فسميرةُ هذه أصغرُ منها بعام كامل، كيف يكون هذا حوارًا بينَ أطفال! إنّ "سميرة" تتحدّث بجديّةِ امرأةِ خبرتِ الحياة، ويبدو أنّ ما يختبئ تحتَ عباءة الريف أكثرُ بكثير ممّا يبدو، حتى يكادُ يكون

العكس، وكمِ انْدهشت "منى"؛ فللآنَ– وبالرّغم من أنّها تعدّت أول أعتاب تكوينها كأنثى– لا تملك أيّة معلومة، فالتّعتيمُ العام والحدّة والشّدةُ هي مُفردات تربيتها، فأيّ شيء عيبٍ غيرُ مباح، ولا يجوز، فقط تعليماتٌ وأوامر، فحينَ بدأ جسدُها في التمرد على الطفولة لم تجدْ سوى تعنيفٍ لأنّها.. لا تدري حينها..

"لأنّها ماذا؟"، فقط قائمةٌ من الممنوعات، ممّا كان مباحًا إلى حدّ ما سابقًا، وحتى عندما بدأتِ الأنوثة تتحدّى الصمتَ وتخترقُ حدودَ ملابسها؛ لم تجدْ مَن يُعيد تصميم مفردات ملابسها، فكانت تنحني للأمام مُحتميةً بكتبها أو حقيبتها، لتُخفي (عيبًا) أصرّ على التّمرد حتى صار لديْها ما يشبه القتب مِن الانحناءة، يُعلن في إصرارٍ عن وجودِ تغيير ما.

تلاشت "منى" مِن أمام سميرة مُتعجّبة، ولم تُفصح السرَّ لأحد لأنّه فيما يبدو "عيب".

كان هذا حالَنا جميعًا، إلّا تلك "الدّاليا"، فكانت ثيابها تزداد انْحسارًا، في تحدٍّ صارخٍ لكلّ النّظرات والهمهمات المصاحبة لها، فلقدِ اعتادتْ

من المحيطين ذلك حتّى أضحى مثار سخرية بالنّسبة لها، فلقد كانت تتمتّع بثقةٍ من نوعٍ آخر؛ ثقة إهمال الأهل، وانْغماسهم في حياتهم الشّخصية، فلقد بلغ السنُّ بعمّتها ما تعجز معه المتابعة. وكانت "داليا" تفعلُ ما تريد، إلّا أن تتطاول على عمّتها مهْمَا فعلت لأنّه عيب، فالعيبُ هنا أصبح له العديدُ من المُترادفات اللامترادفة، وبدا للعَيان أنّ "العيب" أصبح يتمزّق بين المصالح وبين ما تتطلّبه الظروف، حتى العيبُ فقَدَ مصداقيته.

غريبةٌ هي المرحلة الإعدادية، حين يشتدّ صراع البقاء بين طفولةٍ بريئة وصبا وثّاب، والأغربُ وقوعهما بين براثن العيب والجهل بما يجري، ويكون القلبُ أرقّ ما يكون، وأكثر استعدادًا للنّقش على صفحاتِ تاريخه، فها هو ابنُ الجيران مازال في جلستِه الصّامتة ونظراته الثاقبة، وإن كان قد غير جلستَه للنّافذة المقابلة للشارِع، حيث بدأت "منى" تأخذ درسًا خصوصيًّا في منزلِ أستاذ "عصمت"، ولكنّها تعلم؛ أعوامٌ مرّت في صمتِه، وستمرّ بلا كلمة أو نهاية، وتحمل "منى" كراستها استعدادًا لحصّة درس مادة اللغة الإنجليزية، يرمقها بنظرتِه المعتادة، تغْضضُ بصرَها وتضمّ كُتبها وتسيرُ مسرعة بانْحناءة ملحوظة، كانت تصعدُ وتهبط من على رصيف المنازل على يسارِ الشارِع حيث ينتهي بمسجد الأوقاف الكبير،

قبلَ المسجد مباشرة برقتْ عين ذاكرتها، فلقد تذكرت المنزل المُتاخمَ للمسجد، منزل عائلة يشهدُ لهم الجميع بعميق الاحترام والخلق؛ عائلة سعيد. كان "سعيد" الابنَ الأصغر لهم، ومعَ ذلك اشتهرت باسمه، فهو عكسُهم في كلّ شيء؛ يرتدي الملابس الملوّنة الصارخة، ويترك لشعره العنان، ويُصفّفه بطريقةٍ وإنْ كانت تُشبه موضةَ هذه الثمانينيّات إلّا أنّه في مثل جيرتنا هو شيء يدْعو للنقد، ولكن بطبع شارعنا الهدوء والاحترام، لا أحد يعْترض، وتسير أيامُ شارعنا بهدوءٍ إلّا ذلك اليوم، منذُ أكثر من أعوامٍ– أو أعتقدُ عقود– استيقظ الشارعُ على صراخٍ ومشادّة تصدر من بيت عائلة سعيد، وللعجبِ كان أخو سالي هو الطرفَ الآخر في الانفعال، إنها جارةٌ أخرى تسكن آخرَ الشارعِ الخلفي في حارة سد، كحياة أغلبِ مَن يقطنونَ هذه المنطقة من الشارع، وكنّا كثيرًا ما نراها تستقبلُ "داليا"، وينغمسان في أسرارٍ لا نُريد أن نعلمها، كانت أصغرَ أخواتها، ولكنّها أكبر منّا ببضعة أعوامٍ هي الفارقُ بيننا وبين العيبِ والحرام، كان بيتُها بيتًا كريمًا، جميعُ إخوتها مُحجّبات؛ حجابًا لا يشبهنا، بل يميل إلى الشّوام أكثر، وكان أخوها مثالًا للرّجل المهذب المتدين، ولكنّ "سالي" كانت غير مُحجّبة، أذكرُ شعرَها الأصفر الناعم؛ كان متوسطَ الطول، خفيف، وكانت

لذلك تجمعُه كلّه على جانب خدّها الأيسر لتُخفي به حرقًا شوّه كثيرًا من هذا الجانب، وكانت عندما تُخفيه هكذا تكون شابّة جميلة.

كانت تنظرُ لنا كأطفالٍ وتأمن عقلنا، ولكنّنا كنّا نراها حين يطول بنَا السّهر في الشارعِ، أو حين نستيقظُ مبكرًا لأيّ سبب طفولي، كنّا نراها تذهبُ إلى منزل عائلة "سعيد"، تدخل في انسيابٍ وصمت، وتُسدل ستائرَ المنزل التي تُطلّ على الشارعِ، كنّا نرى ولا نعي، ولكنْ هذا اليومُ منحنا أعمارًا من الخوف، فلقدْ تطرّق إلى أسماعنا أنّ "سالي" تحمل في أحشائها جنينًا، سعيد هو أبوه، كيف؟!.

وبدأتِ الأحداث تترابطُ في أذهاننا، وأحكمت شبكةُ العيب قبضتَها علينا، حين وقفَ الشارع بأجمعه، وبكلّ مُتحفّظيه ومتحرّريه، ومَن يبالون، ومَن عادةً لا يكترثون، وقف الجميعُ وقفة واحدة تعجّبنا لها، حتى المُختصمين اجتمعوا، اتّحد الجميعُ في صورة نحنُ فقط رأيناها بشكلها الحقيقي، تجمّعوا كوحشٍ كاسر يحملُ صكّ غفران الخطيئة، ويحمل سالي وسعيدًا قربانًا على مذبحِ فضيلة البوح. نعم، فالكثيرُ كان يعلم، ونعم.. الكثيرُ كان صامتًا لامباليًا، أو يتّخذ الستر حُجة لتخاذله، ولكنْ ما إنْ أصبحت الفضيحة علنيّة فلا بدّ أن يثبت الجميعُ أنّهم حقًّا "رجال"،

وكانت الضحيةُ كالعادة هي الأنثى، وتمكّن الرعبُ من خيالنا حين اختفت "سالي" تمامًا من الشّارِع والحي، وكذلك "سعيد" وإنْ أصبحنا نراه بين الفينة والفينة يأتي في ستارِ الليل ليزور والدتَه المقعدة، وظلت العائلتان معنا كأنّ شيئًا لم يكن، وساد صمتُ العيب... ويا لها مِن وحْشة، فالصمتُ في حقيقه أمره ظلامٌ موحش في غابة مُتشابكة الأغصان وسطَ برودةٍ وضباب يحيط بكلّ ما بداخلنا مِن تضارب وتلاطم.. والأكثرُ رعبًا ووحشة أنّنا نكون بمفردنا نُجابه كلّ أنواءِ أنفسنا.. فيقوم الواحدُ منّا بكل الأدوار، ويعيش كلّ التفاصيل، ويظلّ يتخبّط بين كلّ الاحتمالات، ويهوي إلى سحيقِ النّفس، وإلى مرقد الرّوح، بلا دليل ولا نبراس ولا لمحةِ ضوء، كيف السبيلُ إلى تحمل كلّ هذا؟!.

إنّه الصمتُ حيث لا ينبغي أن نلجأ، ولكنْ لا أحد لدينا لنلجأ له، ولم نكنْ قد اكتشفنا الله في أنفسنا بعد.

سارعتُ الخطى متجاوزةً هذه الذكرى المُخيفة، إلى درس "أستاذ عصمت"؛ السّاحر الجديد، ساحر كلّ المراهقات، إلّا هي، فبالرّغم من أنها تعشقُ التميز وهو متميزٌ، ولكنّه أستاذ أختِها الأكبر منها المتميّزة في اللغة الإنجليزية، والفائقة الجمال، فكان دائمًا ما يذكّرها بأختها، وبالرغم

من تعقيبه بأنّها هي الأخرى متفوّقة كأختها، ولكنّه قد فقدَ تميّزه لديها، فهي عهدتْ على نفسها التّفرد، قد لا تكونُ جميلة، ولكنها حتمًا ستكون الأفضل، ودائمًا كان الانتظارُ خارجَ الدرس في الشّارع، تقف دقائق معَ زملاء الدرس، وكانت "غادة" أجمل مَن رأت مِن سمراء، فبشرتُها مثل حبّة بنّ رقيقة الانتماء للنّار، وعيونها أكثرُ من نجلاء بكلّ نجلاء، أحبّتها "منى" برغم كلّ ما يُثار حولَها من أقاويل؛ إنّ "منى" ترى بعين حورس، وتعرف كمْ هي جميلة من الداخل. كانت "غادة" مصدرَ معلوماتٍ فريدة عنِ ابن الجيران، بالرّغم من أنها تقطن حيًّا آخر، ولكنّها صديقة صديقٍ ابن الجيران، ولا تعليق؛ فهو زمنٌ آخر لا يحتملُ هذه التسمية.

وتمرّ ذاكرةُ النّبضة اليتيمة مُتسارعة، مُتخطّية شارعها، تثبُ إلى المرحلة الثانوية، حيث الزّخمُ الأنثوي المتفجّر بين فتياتٍ في سنّ الزواج حينها، فالثمانينيّات اختلطتْ فيها وتضاربت كلّ الأفكار حولَ المرأة.. والزّواج.. والوطن. فالثّمانينيّات عِقدٌ فاقدٌ للهوية، تتساقط فيه التّقاليدُ والعادت على الجانبين؛ جانبٍ ينتمي إلى حقبة ما قبل "السادات"، وكلّه قتالٌ ومبادئ وسعي إلى تحقيق حلمٍ ومهامّ جليلة، وإنْ كان على حساب بعض الجمال، ولكنْ هناك إصرار على النّجاح؛ وحقبة ما بعد السّادات مِن

ترهّلٍ نفسي وعَقدي، ومن انفراط عقدِ الأُسر والأماكن، وحتى عقد الجمال.

وبرغم ما كان يعتملُ في محيطها من تضاربٍ اتّخذت "منى" وقلبُها قرارهما بالقفزِ إلى منصة العقل، فكمْ دقّ قلبها حين بدأتْ في قراءة روايات "عبير"؛ وهي روايات رومانسية فقيرة حقيقة للقصّة، ولكنّها مُتخمة بالأمل لكلّ المحرومين من الأملِ أمثالنا، وكثيرًا ما كانت تُداعب صديقتَها بأنّها ستُفشي السرَّ لوالدة عبير بأنّ هناك روايات "عيب" باسمها.. وتنبري "عبير" مدافعة: لا، ماليش علاقة، هي "رباب" اللّي بتجيبها.

"رباب"؛ شخصية تستدعي الوقوف أمامَها طويلًا، فهي قارئة فائقة الطّراز، مميّزةٌ في الكثير عنهم، فهي مختلفة عنهم في شكلِ الحرية.. كانت حرّةً في قصّ شعرها بطريقة مميّزة بها فقط، وكانت هي الموردَ الأصلي والوحيد لروايات عبير، بالرّغم من أنها أكثرُ اتّصالًا بعالم الكتب والأدب العالمي، ولكن هي حريّتها الخاصّة المميّزة بها، قد يكون نوعًا من التمرد أو أي شيء آخر، ولكنّ الأكيد أنّها "رباب" حيث يجب أن نتعلم التميزَ حتى في نُطق الحروف، عجبًا حقًّا لعقول كانت تُحلق في آفاقٍ لا محدودة، وهي مصلوبةٌ بداخل الأرض وضاربة في أعماق الأرض بجذورٍ من قيود،

هنا في هذا الفصل اجتمعوا مرّة أخرى؛ عبير ومنى وهدى وإيناس ونهلة وداليا، ولم تغير السنواتُ أحدًا، ولكنّ "هدى" ازدادت تألّقًا في فنّ السخرية والخروجِ عن النص، و"داليا" تمكّنت منها الأنوثة والانفراط العائلي، فكانت ترتدي أضيقَ الملابس، وتنتهك الزيّ المدرسيّ الصارم بألوانٍ وفتحاتِ صدْر متّسع، ويا للهول بعض مسحات مِن أحمرِ شفاه، كانت دائمًا تريد أن تعلنَ لنا أنها غيرنا، لا تنتمي إلينا، أنّها من فصيلة نجوم السّينما؛ فهكذا كان حلمها، وكلّما سافرتْ إلى القاهرة لوالدتها وعادت، كانت تحكي لنا من رأتْ منهم، ومَن جلست معهم، وكيف أنّ والدتها تركت عملها كمُضيفة، وأضحتْ إحدى مفردات هذا الوسط.

وهناك "ليلى"، زميلةٌ انضمّت إليهنّ في المرحلة الإعدادية، واتّخذتها "منى" الصديقةَ الأولى، كانت ترى فيها كلّ ما تحتاج أن تراه، ولا تريد أن تفعله؛ فليلى كانت مُختلفة، فارعة الطول، غير محجّبة، تعشق حبَّ الظهور ولو على حساب أي كائنٍ مَن كان، ولكنّها على الصعيد الآخر كانت متفوقة وجميلة، وبرغم كلّ عيوبها فلقدْ كانت إحدى نبضات قلب "منى"، فمَن يُقصر نبضات القلب على الجنس الآخر لهوَ حقًّا قاصرُ الفهم، فهناك على مرّ الحياة بالتأكيد نجدُ مِن جنسنا مَن ترتفع نبضاتُ قلبنا شوقًا إليهم، وحبًّا عند تذكّرهم، بل وقد نجترع الألمَ في فراقهم

كأشدّ ما يكون من فراق حبيب، فما وقرَ في نفس "منى" فإنّ الروح لا مذكر ولا مؤنث، هكذا كانت "ليلى" بالنّسبة لفريدة، فعندما بدأ يعلو نجمُ "منى" في الدّراسة والأنشطة، وحتّى الدروس الخارجية؛ تصدّرت "منى" المشهدَ باختيارها وتوقيتها، وإصرارها على التميز، فهو كلّ ما تستطيعُه في ظلّ كلّ المتناقضات التي تعيشها، ولم تقصد التعدّي على تطلّعات "ليلى"؛ بل على العكس، كانت تسمح لها بكلّ التطاول، حتى لو على كرامتها إنْ لزم الأمر، فهي تحبها، وللأحبّة مقاييس أُخَر، ولكنْ مَن اعتاد الأخذَ سُلب مُتعة العطاء، وكان أنْ خانت "ليلى" بتعنّتٍ كلّ مواثيق الصداقة، وسمحتْ لـ "ماجدة" وهي شخصية لم يمنحها الله أيّ مفردة مِن الجمال، فلا جمال وجه ولا سريرة، ولا هي متفوقة، هي فقط كتلةٌ من الكراهية والحقد، وكان تميّزها أنها تقرأ بشكل مرضي، وتجيدُ الألاعيب النفسية، كأنما قصدت أن تقتصّ من "منى" وتميّزها الهادئ الصّامت في هذه المرحله الحرجة؛ فاندسّت بين صداقتها بليلى، وكان نجاحها الأعظم، أرى صورتها الآن على إحدى الصّفحات، يسبقها لقب الشاعرة ولكنْ اسمٌ آخر تمامًا غير اسمها، ولكنّ هذا القبح لا تخطؤه العين، فحتّى اسمها تكرهه، كم هي قميئة!

صوتُ مسعفٍ يأتي من سحيق الصّدى: فيه نبضة.

يتهلّل وجهُ زميله: ممتاز.

ويزدادُ الأمل فيكرّر: إنعاشٌ آخر.

يساعدُه زميله: ابتعدوا.

شحنةٌ أُخرى تنفضُها قسرًا، لا.. لا أُريد، أريد هدوءًا، أُريد أن أتّخذ القرار.. رجاء، املئوا شُحناتكم بأيّ ذكرى جميلة، كيف لا أرى سوى آلام، رجاء ساعدوني بجديّة، أو توقّفوا.

ويلوحِ حزنٌ على وجه أحدِ المُسعفين: بتروح منّنا.

يحاول زميله بثَّ أملٍ آخر: جاهز.

ينهارُ "حورس" في السّماء، ويُقرّر التدخل، فهي روحه التي على الأرض، ويضمّ أجنحته إلى صدره، ويترجّل إلى الأرض، في صورتِه السّمراء القوية؛ شابّ في العشرينيّات، تعرفه؛ فقد كان زميلَ الثانوية سنوات طويلة، تعرفه شكلًا فقط، فقد كان مِن الطلبة المُشاكسين، غيرِ الجادّين من وجهة نظرها الدّءوبة، وارتادَ إحدى الكلياتِ العسكرية، كان كلّ عطلة يقْضيها في شارعها طوالَ السهرة من قبْل الغروب، اعتادت على مواعيده

ومواعدته بلا حرف، كان دائمًا ما يقف على ناصيةِ شارعها تحتَ هذا المنزل تحديدًا، ولم تدرك سوى الآن لماذا اتّخذ "حورس" هذا الموقعَ لمراقبتها وحمايتها، كان يخْطو كعسكري الدّرَك، لها فقط، منذُ انحسار الشمس وحتى آخرِ الليل، دوريتُه فقط شارعها، روحة وجيئة، سنوات بلا ملل، حتى كان يوم...

إنّها السادسة صباحًا، كانت ذاهبةً إلى امتحان السنة الرابعة بالجامعة، تسيرُ على كورنيش نيلِها البسيط مُتّجهة إلى موقف السّيارات، سمعت صوتًا يناديها في حميميّةٍ وفرح: منى.

التفتتْ في تعجّب؛ فمَن يجرؤ؟!.

ردّدت في اندهاشٍ أقربَ إلى أنها تُحدّث نفسَها: خالد؟! قالتها في بساطةٍ أدهشتها، فمتى عرفتْ اسمَه؟!.

وبمُنتهى الثقة والعادية يسألُها: رايحة فين ع الصّبح كده؟!.

تردّ بلا تردّد: عندي امتحان.

تلمعُ نظرة انتصار في عينِه قائلًا: أنا خلصت خلاص، النهارده هاستلم أوّل يوم شغل. قالها بفرحةٍ عارمة، وكأنه يُهدي لها كلّ ما يملك.

ابتسمتْ في فرح مشوبٍ بالحيرة، وأردفت: مبروك.

ولم تعرف ماذا تقولُ بعْد، فلقد أدركتْ أنّهما يسيران معًا، والوقت مبكّر، ولم يحدث قبلًا أن سارت مع أحد هكذا، وملأها الخجلُ والعيب، على عكسه كان منطلقًا ويتحدّث بحريةٍ كأنه يأخذ دينًا مُستحقًّا لسنواتٍ قضاها يتعبّد في شارعها ويطوف بمنزلها، كانا قد وصلا إلى حيث سيفترقا، ووقفَا بالمواجهة، لأوّل مرّةٍ بحياتها تراه وجهًا لوجه، إنّه هو، بلونه الأسمر، بطولِهِ الفارع، بنظرته الثاقبة، وتمعّنت في زيهِ العسكري الأخّاذ بأزارره اللامعة، فهي من جيل تربّى على عشقٍ منساب لهذا الزي، ولكنّ ابتسامته الساحرة أيقظتها على صوتهِ الجَهْوري: ده رقم تليفوني، لازم نتكلّم ضروري، سلام.

وانصرفَ مسرعًا. لا تدري ماذا حدث بعد، وكيف تسارعت الأحداث، رأت أيامًا في مجملها تحمل القلبَ في مهده برفق، تُرضعُه ثقة في الأيام

والقلوب، رأتْ مسحةَ حنان، توهّمتها المُنجية، وبدأت تخفتُ دقّتها، توقفت النبضة، وقبل أن تخبو، تسمعُ رنينَ الهاتف..

منى مُعتذرة في ذهول: خالد، أنا آسفة على الموقف ده، إحنا اتغدَر بينا.

يسري ألمٌ لا يُحتمل عبرَ الهاتف: "منى"، أنا قصّرت في إيه عشان يحصل لي كده أنا ووالدتي؟

وبصوتٍ مَغدور: "خالد"، والله ما كنت عارفة إنّهم هنا هايعملوا كده! مش ممكن يكون عندك شكّ.

وتهاوتِ الآمالُ واحدٌ تلو الآخر، مع تهدّج صوت خالد: منى، أنا أُغمى عليّا وأنا باسجد، أنا بحبّك قوي.

وتردّ "منى" من خلال دموعِها: عارفة. أرجوك، نتكلم لمّا نتمالك نفْسِنا، أنا هاموت من الصدمة.

وهنا، تجلّى اليأس قادمًا في إصرار: آسف يا منى، مش هاقدر، لو كنت لوحدي كان ممكن، لكن أنا وأمّي تمّت إهانتنا في منزلكم.. آسف حبيبتي.

تصمتْ منى ولا تستطيع الرد، فتكتفي بالبكاء.

اقتربَ يهمس في أُذنها: أنتِ حبيبتي، ولن يكون هناك بعدَك حب.

وانتهى كلّ شيء. كيف؟ حقًّا؟!. هل تتّهمه بأنه خذلها؟! لا تستطيع أن تتّهمه، أو أن تُبرّئه، فبعقلها تلتمس له كلّ العذر، ولكنّ القلب لا يستطيع، فالألمُ يحول بين ذلك، ولكن هل هو حقًّا حِرصٌ عليه أم حرصٌ على حالة إنعاش حدثت للقلب، بثّتْه بعضَ الحياة، فقد كان أول خطواتها في استعادة الثقة أنّه ممكن، ولكنْ حدث أنّه لم يكتمل، فإذًا غيرُ ممكن، فهو خذلان أذهبَ قلبها، حقًّا.. هي لم تُدرك كُنهه، فهي حتّى لم تمنحه كلمة أُحبك.

يالله! أهي دماء القلب أم العقل أم العين؟!، كيف يظلّ الإنسان ينزف طيلة عمره ولا يرى ولا يحس؟!، كيف يلتئم جرحٌ ويظلّ يدْمي من القلب، وكيف يستوعب الجسدُ الحياة؟! ما مدى الاستيعاب الذي خلقه الله بداخلنا؟!.

لملمَ "حورس" أجنحته، وتبوّأ مكانه في أعلى المنزل المقابل، يُتابعها في قلقٍ وحزن، فلقد باءت محاولته لمساعدتها بالفشل، كان يودّ أن تتذكّر ما

يُسعدها، ولكنّها كعادة عقلها، يتفوّق على أيّ توقع، ويذهب إلى مدى غير محدود، هكذا هي كانت أم مازالت؟ لا أحد يعلم.

وصمتَتِ النبضةُ في وجل، ووقفتْ حدادًا على أملٍ كاد يكون، فهل ستعود؟

١٦ ثانية

على مشارفِ النّهايات يحْدونا مزيجٌ غيرُ متوقع من المشاعر، وتختلف محصّلة كلّ نهاية حسبَ تلك المشاعر، ويظل الندم هو أقسى هذه المشاعر، فهو يعني كمْ أخفقنا في قرارت، أو كم أخطأنا في حقّ أنفسنا، وكم أرَقْنا من أعمارنا هدرًا، وما أثمنها من أوقات لن تعود، فلا بديل عن العمر سوى أن نأخذ القرارَ الصّحيح فيما تبقّى منه، حينها فقط نستحقّ المغفرة من الماضي.. الماضي؟!، هل أصبح حقًّا ماضيًا؟!، إذًا.. فكيف ينسلّ هذا الشعاع إلى غرفة المعيشة؟!، تراه جليًّا كأنه حادث الآن، أوراق كثيرة على الطاولة، مظروف أصفر كبير، وورقة مقوّاة مستطيلة لونُها قرمزيّ فاتح، وجدول به خانات صغيرة، وصفحة مُنفصلة مليئة بطوابع هي أقدار بشر صغار، عفوًا.. مليئة بأسماء كليات ومعاهد لوضْع الاختيارات، إنّها إذًا أوراق مكتبِ التّنسيق، لم تبحثْ عن أبيها لمساعدتها، فهو لم يعدْ بعْد، ولكنّها قد حصلت على مجموع متميز من الدرجات، لتهديها إليه، ولتؤكّد اختيارَها التميز، ويبدو أنّ هذا خطؤها القدري الجسيم.

جاءها صوتُ الأمّ في لهجة آمرة: سنلصقُ بالترتيب طوابعَ جميعِ كليات الطب.. تليها طبّ الأسنان، ثمّ.. ثمّ.. إلخ.

لم تسمعْ "منى" باقي الحديث فلنْ تنطلي عليها هذه الحيلة، فالكلّ مُدرك تمامًا أنّ مجموعها يفوق كلّ الرّغبات، ستأتي لها أوّل ما ستكتب.

تعترضُ منى في سذاجة: مش عاوزه طب.

الأمّ لا تردّ كأنّها لم تقلْ شيئًا، أو بالأحرى غير متواجدة بالكون. وتكرّر "منى" اعتراضها: مش هادخل طبّ، عمري ما فكّرت فيه.

وتردّ الأمّ في تساؤل لا تريد إجابته: أمّال جبتِ المجموع ده كلّه ليه!؟

وبسذاجتها المستمرّة تجيب "منى": لأنّ ده أنا.

وهنا، تعلن الأمّ قرارَ القدر بمُنتهى الحزم، بل بمنتهى الاحتلال: مفيش رغبة تانية هاتتكتب.

"منى" وقد أخذتْ نبرة صوتها في الحدّة: لا، هاكتب اللّي أنا عاوزاه، ده مستقبلي.

وكأنّها لا ترى ولا تسمع؛ تُصرّ الأمّ قائلة: أنتِ مش عارفة مصلحتك، أنا باقولّك الصح.

يا لَلْقَهر! هزّت منى رأسَها في عنف: مش عارفة مصلحتي إزّاي؟! على الأقلّ عارفة أنا باحبّ إيه.

عجبًا، تنبّهت منى إلى أنّ الأمّ لم تنفعل بالرغم من حدة نبرة صوتِ "منى" على غير عادةِ الأم، تنبّهت ولكن كان صراعها الآن أهم.. فهي تدرك تمامًا أهمية التحاقها بكلية الطب للأم، فهو مصدرُ فخرٍ وتحدّ قد فازتْ به الأم، فالبرغم من غياب الأب وتحمّلها كامل المسئولية فلقد استطاعتِ ابنتُها، أو مِن وجهة نظرها المتملّكة لكلّ شيء؛ فلقد استطاعت هي الالتحاق بكلية الطب، وهو ما عجزَ عنه الكثيرون في عائلة الأم والأب– وعلى مرّ عقدٍ، أو يزيد– من الالتحاق بها، فهي لن تسمح لكائنٍ مَن كان أن يسلبها نجاحها هذا، وفرصتها للتباهي، وإن كان هذا الشخص هو "منى " نفسها.

انفعلتْ "منى" حدّ البكاء، ممّا حدا بالأمّ أن تُبدي بعضَ الهدوء المُفتعل والرقّة غير المعتادة، ولانتْ نبرةُ صوتها: طيّب، أنت عاوزه تدخلي إيه؟!

"منى" من خلفِ دموعها وقد انفرجتْ أساريرها الساذجة ظنًّا منها أنّها قد نجحت بعضَ الشيء في مسعاها: عاوزه أدخل إعلام.

فلطالما كانت تهوى الكتابة والشّعر والإلقاء، وكانت القراءة ملاذَها الوحيد من كلّ العالم.

حاولت أمُّها وضعَ العراقيل في سبيل تحقيق قرارها: بسّ هاتنتقلي للقاهرة ازّاي؟ وهاتعيشي وحدك ازّاي؟!.

فحينَها كانت هناك كلية واحدة للإعلام، وبدأتْ "منى" تناقش التّفاصيل الكبيرة والصغيرة، ولمعت عيناها ببريق الأمل، كم كانت أمنيةُ حياتها أن تكون مراسلة صحفيّة، كلّ متاعها في حقيبة ظهرها، وكلّ أدواتها قلم وكاميرا، دائمًا ما كانت الكتابة هوايتها، والحقيقه غايتها، والحرية أيقونةَ الحياة بالنسبةِ لها.

يا لها من حياةٍ مُشبعة لكلّ احتياجاتها وآلامها ومشاعرها، إنّها أبواب الراحة أخيرًا، بل أبوابُ الجنة، وبدأت الحياة حين قالت أمها لها، وفي هدوء: طيّب هاتي طابع إعلام ألصقه.

"منى" غيرُ مصدّقة، وبمنتهى الفرحة والحياة، تقتطع هذا الطّابع الصغير، كمفتاحِ الحياة أمسكته بيد حورس حيث سيجوبان عنانَ السماء معًا بحثًا عن الحقيقة، وأعطته للأم، وفجأة لصقت الأمّ الطابع في الرّقم الخامس من الرغبات، تذكر منى المكانَ جيدًا، ومن قمّة الحياة سقطت، كمن طُعن غدرًا طعنة الموت، وجحظت عيناها من محجرها حين رأت مَن طعنَها، وبأيّ سلاح، لم تستطع الاستيعاب، فهذا غدرٌ غير مَعْهود، فليس من عدوّ ممكن مجابهتُه، وليس لسبب من المُمكن تقبله، لم تتمالك نفسَها سوى أن أطاحت بكلّ الأوراق وغادرت المكان، كم كانت مخطئة، كم تستحقّ الندم، فات الأوانُ وتبقّى الندم، ولكن آلام الغدر أقسى، فحين يكون الغدر ممّن فرض عليهم أمانك سيكون الندم رفاهيةً إذا ما قيس بالألم.

لم تكنْ قد أدركت بعدُ أنواعَ الغدر، لم تكن تدرك أنه حينما تُصرّ جدّتها لوالدها أن تدعو عليها بالموت لمجرّد أنها الطفلة الأنثى الرّابعة بالمنزل، بأنّ هذا غدرٌ بأمانها وبثقتها بكينوتها كأنثى، فمازالت تذكرُ وجهَ جدّتها وهي تقول في ابتسامة كالدّعابة:

يا ربّ يا منى تموتي وييجي مكانك ولد.

يا له من قصفٍ مباشر للآدمية، فهي لم تأتِ بناءً على رغبتها، ولا طبقًا لرغبتهم كما يبدو.

حاذروا؛ فأطفالكم يعونَ جيدًا أكثر مما تعون، فوق تخيلكم، فلكمْ باتت الطفلة "منى" تُحاول أن تُفسر لماذا يعاملونها هكذا؟!، صراخ وتوعد وتهديد طوال الوقت، أحقًّا أنهم وجدوها على باب مسجدٍ مثلما فتئوا يبثون لها من فكرة، تارة تجد أنّه لا تفسير لمثل هذ المعاملة سوى أنها فعلًا (وجِدَت على باب مسجد)، جملة تبدو مُعتادة للكبار من باب المزاح، ولكنّها.. لن تدركوا؛ فلن أخبركم.

تذكرُ تمامًا، ولا تدري لماذا.. وكيف تذكُر.. أصوات قصف الطائرات فوق منزلهم، يجري الجميع إلى المخابئ، تحمل أمها كنزَها الثمين فلقد أنجبت بعدها ذكرًا، تحميه في صدرها وتلفّه وتدثّره، الجميع يُهرعون على السلم بعد صافرة الغارة، كيف تذكر!، إنها حرب أكتوبر ١٩٧٣ كانت لتوّها أتمت الرابعة من عمرها، يا إلهي كيف تذكر، الأمّ محتضنة طفلها ذا الثلاثة أشهر، الجميع يُهْرع إلى أسفل، في ترتيب تلقائي ولكنْ ذو مغزًى، والدة الأب أولًا ثمّ الأمّ برضيعها، كلّ بلا تفكير، تاركين طفلتين صغيرتين تركضان بلا وعي خلفهما.

صوتُ الأمّ يأمرهما: اطلعوا، نسينا رضعة أخوكم على سور البلكونة، هاتوها بسرعة.

أجابت الصّغرى "منى" بلا تردّد، بلا تفكير: حاضر.

فلقدِ اعتادوا على تنفيذ الأوامر، وخصوصًا التي تقال بهذه الحدّة والحرص، إنه الصوتُ الذي يعلو فوق صوت المعركة لديهم.

والتفتتْ حولها تتحرّى أختها الكبرى؛ الطفلة أيضًا، لتجدها تقفُ بلا حراك في ذهول، فلقد أوقفها الأمرُ عن الترجل، ولكن الخوف تمكّن منها فوقفت كتمثالٍ حجري أكثر من الحجارة نفسها.

لم تتوقّف "منى"؛ فلقد أدركت المهمّة، لا بدّ وأنها أهم من حياةِ الطفلتين بالنسبة للأم، هنا تذكر تمامًا الشرفة الصغيرة المُلحقة بغرفة نومهم، كان المنزل يرتج من صوت الطائرات، إنّها تُدوّي الآن، ترى "منى" قنينة الحليب، تجري مسرعة وتمدّ يديها، طائرات تشقّ الجو، يرتج المنزل، وتسقط القنينة، فشلت المهمّة، لم تهتم؛ فقد اهتمّت بمهمة أكبر، رفعت يديها الصّغيرتين إلى السماء، تضرّعت إلى الله في بكاء: يا ربّ بابا ييجي بالسلامة يا رب.

لم تستطعِ الغدر بأبيها فهوَ مُحارب في هذه الحرب وهي طفلة، فكيف استطاعت الأمّ أن تغدر بطفلة في هذا العمر؟!.

غير مهمّ مثل كلّ غير المهم، فهذا نوعٌ من الغدر أيضًا صعبُ الاستيعاب، لكن هل من الممكن أن نعتاده؟!، أعتقد أن اعتياد الغدر مهْما كان لا ينفي ولا يقلّل من مفاجأتنا به، وبتنوعه الغريب، فالكلّ يبيحه عندما يتفق مع أهوائه، وحينها يتمتع الغدر بالعديد من الأسماء اللطيفة الموسيقى على الأذن، مثل الحرص علينا، الإيثار على النفس، الحب، الحب؟!، نعم الحب، عجبًا، ويتململ العقلُ في نبضاته الأخيرة، فكلّ ما يعتمل فيه لا يُحتمل، وتفيض الذكرى، الحب.

يطرق مسامعها صوت "عمر": بحبّك يا منى.

تردّ في لكنةِ أصدقاءٍ اعتادوا المزاح: إللّي هوّ ازّاي!؟.

ولكن "عمر" لا يبدو أنّه يمزح: زي الناس، بحبّك وعاوز أتقدّم لك.

تنبّهت "منى" وقد لمستِ الجديّة حقًّا: بطّل هزار.

ولكن "عمر" يزداد إصرارًا: شايفاني باهزر؟!.

يقولها بمنتهى الحدّة والصدق، كما تتبيّن الآن في خضم اتخاذ القرار المستحيل، في لحظاتِ النهاية هذه، أو البداية، فمَن يدري!

ف"عمر" زميل وصديق، والدته تقوم بالتدريس في مدرستهم الابتدائية، وصديقة زوجة عمّها الحبيبة، وأيضًا هم معًا أصدقاء والدة "خالد"، فكلهنّ معلمات فُضليات للمرحلة الابتدائية في مدرسة "سيدي شيمر" الغرّاء، كان يكبرها بعام، وتمّ توصيته بأن يساعد "منى"، وكانت تأمن له، فهي ليس لديها أخوة ذكور أكبر منها أو يقاربونها في السن، وكان يشبه أبطالَ الأفلام الأبيض والأسود، يضاهي "رشدى أباظة" في تميّزه شكلًا، وفي العموم كان متميزًا علمًا وشكلًا، و... سنرى.

ويسألها "عمر" متعجّبًا: فيه إيه يا منى؟.

"منى" وبمنتهى الصدق: إحنا من يوم ما تعرّفنا وإحنا زملاء واخْوات، صعب فجأة كده أفكّر فيك إنك تخطبني.. وحب.

ولكن "عمر" لم يترك لها مفرًّا: "منى"، إحنا نعرف بعض أكتر من أيّ حد، ومفيش بينا مشاكل، أنا فعلا بحبك، ونعم فجأة كده لقيتك جوّايا، مش عاوز أعيش إلّا معاكِ.

نوعٌ آخر من الغدر، الغدر بمفهوم الصداقة، قد تكون "منى" مبالغةً حينها في ردّة فعلها، ولكن يشفع لها ما تربّت عليه، فلقد اقترب "عمر" من نقطة العيب، "سالي وسعيد"، يا للرعب، إنّ ما يظنه الآباء من تعتيم وصمت وتعلية العيب بداخل بناتهم تحديدًا، إنّه حتمًا طريق لا يؤدّي إلى الفضيلة في آخره؛ بل يؤدّي إلى التخبط المميت، إلى فقدان بوصلة المشاعر، فأبدا لا يمكن تحديد نوع المشاعر وتصنيفها، فكيف يفرق الإنسان بينَ مشاعر صداقة أو حبّ أو لا شيء، مجرد إعجاب؟!.

وحينَ يكون كلّ شيء ضبابيًّا، فالهرب أفضل وسيلة، أو الاصطدام غير المحسوبة عواقبه، وقد كان.

فلقدْ أخذ "عمر" الموضوع في إطار التحدّي، فكيف لمنى التي تعرفه جيدًا وتقدّره، بل وتأمنه على الكثير والكثير من أسرارها؛ أن ترفض حبه؟!، إنها لا تعي، وهكذا اتخذ مسارَ الوصاية، وتملّكه حب التملك والتحدّي.

"عمر" في حزم: "منى"، أنا قررت مش هاتكوني إلّا ليا.

جنّ جنون "منى" مردّدة: الجنون الحقيقي قد تملكك، بأي حقّ تفرض وصايتك علي؟!.

"عمر" مكررًا نفسَ جملة الغدر التي خبرتها من قبل: "أنت لا تعلمينَ مصلحتك"، يا الله لقد قُتلت سابقًا بهذه الجملة.

"منى" وقد تملّكها شيطان العند والانتقام من جمل الوصاية: مش هايحصل. وهنا أدركت سلاحها الأخير، أو هكذا خُيل إليها.. أنت عارف كويس إنّي مرتبطة بخالد، وهايتقدم الأيام دي.

احتدّ "عمر" قائلًا: أنت بتقارنيني "بخالد" ازّاي؟!، أنا "عمر" وأنتِ عارفة كويس.

نعم، فهي تعلم أنّه من الطلبة الأوائل بكلية الطب، وأنّه سيكون أُستاذًا بها، وأنّ مستواه المادي يسمح لهم بكلّ الراحة، ولكن.. هو فقط صديق. وهي قد ارتبطت بالموافقة مع شخص آخر، وجاءت اللحظة الغادرة.

وتوشّح "عمر" بوشاحِ الغدر الذي أصبحت تدركه عنْ بُعد: أنا باقولّك أهو، لو حصلت.. إنّي أُسيئ إلى سُمعتِك أمام الجميع، ولنْ يقترب منك أحد، وسأتزوّجك.

منى وقد أذهلتْها المفاجأة: جنونٌ مطبق. افعلْ ما شئت؛ فلن يصدّقك أحد، فأنا يعرف الجميعُ مَن أنا. وإنْ صدّقك أهل الأرض جميعًا فلن يحدث أنْ أرتبط بك.

ما هذا الغدر الذي يعتمل في النفوس! كيف يتحول إلى فضيلة حين يخدم مصالح الأشخاص! لم تنظرْ إليه، استدارت وحثّتْ عقلها بعيدًا لا تلوي على الذكرى.

مازال المُسعف يؤدّي مهمّته المستحيلة: لقد حركت أطرافَ أصابعها.

ويجيبه زميله في اهتمام: يجب أن نسرع بنقلها.

ويُصرّ المسعف كأنّه لا يسمع زميله: شحنة أُخرى.

وينتبه العقلُ الذي بدا أنه قد مال إلى اتخاذ قرار الرحيل، فما الفائدة من العودة لكلّ هذا العالم المتناقض، ويرن جرسُ الهاتف..

ويأتي صوت "خالد" في لهفةٍ: "منى"، هوّ حصل حاجة؟!

أجابت "منى" في براءة: خير! ليه بتقول كده؟

ألقى قراره في حزم: مفيش، حدّدي ميعاد بكره لازم نخلّي خطوبتنا رسمية.

"منى" في دهشة: حصل إيه؟ مش اتفقنا بعد الامتحانات!

وجاءها الحزمُ مرة أُخرى: سامعاني؟! بكره.

وأغلق الهاتفَ في عنف غيرِ مسبوق، صور صاخبة تجتاحها فلقدْ علمت ما فعله "عمر"؛ فلقد ذهب إلى منزل "خالد" برفقةِ أحدهم، وحاولوا الإساءة إليها، يا لهم من خبثاء وموتورين، ويا له من إنسان!

وصارَ حديث الجميع، فالكلّ يعلم مدى ما فعله من خطيئة، ولكن لكلّ مميزاته، فليسقط العيب، بل والحرام أيضًا مقابل المصلحةِ من وجهة نظرهم، ويحثّونها على الارتباط به، جميعُهم بلا استثناء. وعلى الصعيد الآخر، يتعجب الجميع من إصرارِها على "خالد"، فهو بكلّ المواصفات–مواصفاتهم– لا يرقى بأيّ حالٍ إلى " عمر" ومستقبله وادياته، إنّه العيب

يا سادة، عفوًا.. إنّه الحرام، إنّه ما لا تعرفونه، فكيف تدعون التديّن، وكيف ترتدونَ حجابكم، وتقيمون صلاتكم، ورسولُكم الكريم قد قال صلّى الله عليه وسلم: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلّا تفعلوه تكنْ فتنة في الأرض وفساد كبير".

أبدينكم أيضًا تغْدُرون؟! كم غدرٍ تستطيعون أن تحملوا بين جنباتكم؟! سأرحلُ؛ فأنتم لا تستحقون.

ويُلملم العقلُ من أطرافها سيل الحياة، معتزمًا الرحيل في إصرار، فلقد عصفَ برغبة العودة ما تذكّرته من غدر بمختلف تعريفاته ومسمّياته.

ما لهذا المُسعف وإصرارِه على إعادتها: بتروح منّنا.

وكذا زميلُه الآخر: اجهز.

يردّد في تحذير: ابعد.

ويؤكّد على الإصرار زميلُه: شحنة أقوى.

لنْ تعود مهْما حدث، يكفي.. يكفي، ولكن، من بين جموع الوقوف رأت عينًا صادقة، عجبًا كيف اشتعل رأسه بالشيب؟!، كم من الأعوام مرّت؟!، وما هذا الصدق، أم أنها نزعات موت تترجّى الأمل، ترغب في العودة، فالحياة لم تُعش بعد، واقترب منها في لهفه؛ إنّه "عمر"، يا للعجب، كم يختلف تقديرنا للأمور، الآن فقط أدركت، كم كنّا ضحايا، ضحايا كلّ الجيل السابق، لم نكن نعلم أنّ الحب ليس عيبًا، كان الواجب أن تعلّمونا أنّ الحب أعظم ما في الحياة، فإسلامنا أعلى من قيمة الحبّ والمحبة، وأعلن عن علاجه، حتى بين الجنسين، عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: {لم ير للمتحابين مثل النكاح}. فكم أنتم مساكين، فحتى كيف نعرف أننا نحب، موهبة فقدوتها فأفقدتمونا إيّاها.

الآن فقط، علمت "منى" أنّ "عمر" هو الوحيد بعالمها الذي تمسك بها، وحارب من أجلها، حتى أنه حاربها هي، إنه عنفوان القلب حين يسقط في براثن مَن يجهلون حتى حبّ أبنائهم. أمسك "عمر" يدها..

مسعفٌ مفسحًا الطريق: اتفضل يا دكتور.

وبدأ بإخباره تفاصيل الحالة، وفيض من التواصل يمتد، فيضٌ من اعتذارٍ منه، وفيضٌ من امتنانٍ له، فعلى الرغم كلّ شيء، ليس هناك مثله أحبّها وتمسك بها، فيضٌ فاق في ردةِ فعله أيّ شحنة قد تصدر لإسعافها.

لفحة من حياة أودتْ بقرارها بالرحيل، فهي إذًا بحاجة إلى إعادة المسميات إلى حقيقتها التي تكشّفت لها مع الوقت، فالأخطاء لانهائية، فنحن أبناء تجربتنا الشخصية، وماذا عن الناجين؟!، هم ليسوا بالناجين، هم فقط يلفظون أنفاسهم الأخيرة فقط بفارق زمني، قد يمتد عمرًا كاملًا وطوال هذا الوقت، في النازعات، كم جابهنا، كم من دمع ذرفنا وأرواح فقدنا، كم من العجز استقينا وسقينا؟، حتى بالعجز ارْتوينا... وأصبحنا معاقين نفسيًّا، واختلّت معاييرنا ومقاييسنا، وفي عالم موازٍ أصبحنا نسنّ قوانينًا، ونُصدر أحكامًا ونُطهر آثامًا، أصبح كلّ منا أبَ اعترافٍ لنفسه، حتى تأتي لحظة نحتاج أن نستجمعَ شتات أنفسنا، فلقد لامست شفاهنا قُبلة الحياة، ولاحت عندَ الأفق صرخة ارتدادِ الرّوح، ولكن أين الروح؟!، لماذا الآن عاجزة؟!، لو كانت قُبلة الحياة خطيئة فهي الآن تريد أن تُخطئها، تريد أن تحيا في رحابها. مرّ العمر وسدّدنا ديونًا ومقابلَ لكلّ عجز صادفنا، ولكنّنا أبدًا لم يطف بخيالنا أن يومًا ما سنستلم الفاتورةَ الأغلى، الواجب دفعها دفعة واحدة من كلّ مكنوناتنا، فاتورة العجز عن

الخطيئة، وهو أقصى (أقسى) عجزنا، حتمًا ستجد بينَ التّسميات الجديدة ما يكافئها، ستعود، أو على الأقلّ لن ترحل الآن، مازالت قادرةً على اتخاذ هكذا قرار، فرجفةُ الأمل التي اعترتها، تُحدثها بأنّه ولا بدّ إن كانت الحياة لها طرفٌ آخر من الفرح والنجاحات، فقط هي أخطأت في المسمّيات، فكم ستحمل لها الذاكرة من فرح؟! سنرى...

١٥ ثانية

وحينما نكون على وعدٍ باتّخاذ قرار حياتي يجبُ أن نجتهد في الإنْصاف، ليس من باب العدل، ولكنْ من باب اتخاذ قرار نحتاج أن يكون متوازنًا، فالميلُ لنا وعلينا، فكلّ المعطيات نعرفُها نحن فقط، وتؤثر علينا بخصوصية متفرّدة، نحن فقط نُدرك، نحن فقط يعتملُ داخلنا ما لا يعرفه أحد أو يتوقّعه؛ لأنّه عادةً خارِج كلّ منطق وكلّ مُعطى، لأنّنا بشر نختلف، ولأن أرواحَنا مع عقلنا، وحتى الجسد، عند اجتماعهم تحدث بصمة خاصّة، بصمة لن تتكرر، وإن كان تناسخ الأرواح حقيقة، وإن تمّ نقل كلّ الأعضاء؛ فستظلّ بصمة المزيج معًا هي نحن، حيث لن يتوقّعنا أحد.

حاولت "منى" أن تتململ في مكانها، لم تتمكّن من أي من أطرافها أو جسدها، كيف يمكن ذلك؟!، إنّها تريد أن تعتدل في جلستها، لم تستطع.. أنْ تُغمض عينها لعلّ الصور المتزاخمة أمامَها أن تهدأ، أيضًا لم يُمكنها حتى الجفن من نفسهِ، فهي تريد أن تجلس على الطرف الآخر من الذاكرة، فلا بدّ لمتّخذ القرار أن يستحضر كلّ الأحداث. عجبًا، هل لا

تستطيع سوى الذّكرى، وتبادر إلى عقلها سؤال: هل حقًّا بيدها القرار؟!، هل هي قادرة على اتّخاذ القرار؟!، وإنِ اتّخذته فما هي أدواتها لتنفيذِ هذا القرار؟!

دعْنا لا نعبر الجسرَ قبل الوصول إليه، هكذا حدّثت نفسها، وذهبتْ إلى حيث الطرف الآخر من الذاكرة. ما هذه النفحات الرّوحانية السعيدة؟!، فالشمس أوشكت على الرحيل، تُلملم أطرافَ أشعتها على استحياء، تتلألأ مئذنة "مسجد الأوقاف" بأنوارٍ أكثرَ من المعتاد، يكاد النور من هالته الإيمانية أن يتّحد مكوّنًا سيلًا جارفًا من إيمان وطمأنينة، صوتُ الابتهالات ما قبل أذان المغرب بصوت النّقشبندي، أصوات مسرعة في طريقها إلى منازلها، حركةٌ دائبةٌ في كلّ التفاصيل، مسرعة في لحظة الاقتراب من الهدف، حتى رائحة الطّهي اللذيذ تتصاعد مُسرعة، فبعدَ قليل سيحين موعدُ أذان المغرب بصوت الشيخ "محمد رفعت"، ويتصاعد من شاشة القناة الأولى صوت جَهْوري، مدفع الإفطار.. اضرب، إنّه رمضان يا سادة، أجمل تفصيلةٍ في العمر، في كلّ مراحل العمر، فحين كانت طفلة، تذكرُ جيدًا فانوسَ رمضان الزجاجيّ الملوّن، كان يُضاء بشمعة هزيلةِ القوام، ولكنّها كانت بالنسبة للأطفال لمعة السعادة في العيون.

تقول "هدى" في خُيلاء: شفتوا الفانوس اللّي بابا جايبه ليّا!. تقولُها بتشفٍّ، وتتراقص كالعادة بهدفِ إغاظة كلّ الأطفال.   وبلا مبالاة تهزّ "منى" كتفيها قائلة: زي الفانوس بتاعي أصلًا. مُخرجة طرفَ لسانها في حركة لإغاظة "هدى"، وزيّ فانوس عبير.

وتتشبّث "عبير" بطرفِ حديث "منى" مؤكّدة على كلامها: أيوه، فانوسي كده برضه. وانطلقتا مسرعتين ليحضرا الأدلة، حقًّا كان كلّ شيء مُتشابهًا في هذه الأيام، وأحضرتا فانوسيهما المُتطابقين.. وتُصرّ "هدى" على إغاظتهم وهي ترفع فانوسها لأعلى: شفتوا؟! فانوسي ألوانه أحلى.

"منى" في عنادِها المميز: نفس الألوان. مُصدِرَة طرف لسانها الصّغير في تحدٍّ.. طرف صغيرٌ للِسان صغير، هكذا كانت قمّة التّطاول والتحدّي، كانت حقًّا أيامًا يُطرزها الاحترام.

"هدى" موجّهة نظرة حادّة لعبير صارخة بها: مش بتاعي أحسن من فوانيسكم؟!.

مُتجاهلة تمامًا الإشاره إلى فانوس "داليا" المميّز كالعادة، فلقد أحضرته لها والدتُها في إحدى سفرياتها الخاصة من حيث لا تطالها أيديهم،

ف"هدى" لا تقبل أن يكون هناك مَن هو أفضل منها، أو يملك ما ليس لديها، ولذلك تمارس عنفها على مَن هي متأكّدة أنهم على الأكثر مثلها.

"عبير" تبكي مُنزعجة، فهي أرقّ من الإجابة ومن الصدام، تنظرُ لمنى، مشفقة عليها تختمُ "منى" الحديث قائلة: تعالوا نولّع الشمع ونشوف. ويتمّ استخدام أعواد ثقاب لتشتعل الشّموعُ فرحة، وتغلق أبواب الفوانيس النحاسية ذات الزجاج الملوّن، وينسى الأطفال كلّ المشاحنات من الانبهار بالسحر، وتبدأ ترنيمة: وحوي يا وحوي.. الياحة.. وكمان وحوي.

أعوامٌ أخرى تمرّ، رمضان آخر ينهمك كلّ الأطفال في عمل زينةِ رمضان، وتُمدّ الخيوط على حوائط البيوت في ورشة عمل، وتتبارى الفتياتُ في قصّ الأوراق في أشكالٍ عدة، فهذا فانوس، وهذه عروسة ورقية، وتلك شراشيب فقط، وعادة ما يقوم الأولادُ بمهامّ لوجستية، فهُم مَن يحضرون الأوراق ومَن يحضرون الدقيق لخلطِه بالماء فيصبح مادةً لاصقة، فلقد كانت (النشاء) رفاهية لم يدْركوها، وتُمدّه الخيوط بين أعمدة الإنارة لإتمام المهمّة، ثمّ بعد ذلك يقومون بلف الزينة بعد تمامها وحراستها لحين القيام بتثبيتها بين شرفات الشارعِ، وكانت أروع اللّحظات حين انتشارنا في كلّ البلكونات، نثبت هنا خيطًا ونُلقي ببكرة الخيط ليتمّ

التقاطها عبر الشارع في الشرفة المقابلة، يا الله! كم مرحْنا، كانت مسابقة سنويّة، وكان دائمًا ما يكون شارعنا الأجملَ على الإطلاق، فالزينة تُظلل الشارع تمامًا، لا مكان لشعاع شمس متمرّد للوصول إلى الأرض.

وهذا رمضان آخرُ يأتي، نجتمع أنا و"هدى" في منزل عبير، يا إلهي! منزل عبير، لقد تزوّجت ورُزقت بابنةٍ جميلة وأورثتها عيونَها المميزة، كم هو جميل لقاء أصدقاء عمر في كلّ مراحل العمر، تحضير إفطار بنكهةِ العائلة بكلّ ما تتوارثه الأجيالُ من عادات، وجلسة مُعتادة أمام التلفاز.

"منى" وقد أذهلتها المفاجأة: عبير، هدى، تعالوا بسرعة اتفرّجوا.

"عبير" من داخل مطبخها: خمسة بسّ يا بنتي نشطّب المطبخ، أنا ما صدّقت "هدى" ترضى عليّا.

وفي إلحاح تُصرّ "منى": تعالوا، تعالوا حالًا.

تأتيان في هرولة كالأطفال كعادتهم.

"هدى" في ضحكةٍ شريرة: جدعة يا منى؛ نجدتيني من المواعين.

"منى" مشيرةً الى التلفاز: شوفتوا!.

إنّها "داليا سراج"؛ جارتهم، وزميلة دراستهم التي اختفت بعد العام الأول الثانوي.

أشاحت "هدى" بيدها: يا شيخة خضّيتيني، أنا افتكرت حاجة عِدلة، ما هي بتمثّل بقالها فترة، بسّ حاجة كده قص ولزق.

"منى" وقد تبدّلت تعبيراتُ وجهها للإشفاق: هو انتِ مفيش فايدة فيكِ يا بتّ انتِ! دي غلبانة، ادعي لها تنجح في حاجة.

وكعادتها "هدى": مش لمّا تبقى حاجة بجدّ، دي راحت اتجوّزت منتج ومطلّعة عنينا، لزقة في كلّ ما نفتح التلفزيون.

"عبير" مُنهية الحديث: لا إله إلّا الله، وحّدي الله يا "هدى"، يا ستّي ربّنا يكرم الكلّ، ويهدي الكل.

طيّب يا شيخة "عبير"، ما انتِ خايبة، ولا فلحت في شغل ولا عرفتِ تشبطي لك في منتج كده. هكذا أردفتْ "هدى" في تهكّم مُعتاد، ويضجّ الجميع بالضّحك، ويتبادل الجميع التراشق بكلّ ما تطاله أيديهن. إنّه

رمضان يا سادة حيث يجب أن يكون كلّ شيء جميلًا. كم مِن السّعادة يحتويها رمضان في كلّ وقت، ولكنْ هل هي تكفي لاتّخاذ القرار؟!.

فلنمضِ سويًّا في قطار سعادة يخطو فوقَ الألم، إنها المرحلة الابتدائية؛ منبعُ كلّ السعادة، وها هو والدها، مدرس بالمدرسة نفسها.

يصيح "بابا" في التلاميذ: يالّا يا ولاد، كلّ الفصل مسابقة.

هرجٌ ومَرَج بين الأولاد لتقسيم الفرق، يعلن الأستاذ "بابا" أنّهم فقط فريقان؛ فريق أولاد وفريق بنات، مما يُشعل المُنافسة، وتُقسّم السبورة من المنتصف، وتلقى الأسئلة ويتبارون في السباق، ودائمًا ما كانت تفوز وفريقها، نشوة انتصارٍ فوق العادة، إنها سعادة، وكم كانت ثقتها تزداد حين يقومُ والدها باستدعائها لصفوفٍ أكبر منها لتقوم بحلّ ما يستعصي عليهم، كم كانت تشعر بالثقة، والتميز، إنه والدها مصدرُ سعادة وقوّة وحنان غير عادي، كم كان محبوبًا، مُخلصًا في عمله بشكل نقشَه في قلوب كلّ مَن تعامل معه، طيّب السمعة، عظيمُ التأثير على كلّ مَن حوله، كان شديد الطيبة، لا تفارق الابتسامة وجهه، برغم شقاء الحياة لم يكلّ من الاجتهاد، والتحقَ بجامعة الإسكندرية ليحصل على درجة جامعية،

تذكرُ كيف كان يصطحبها هي وأختها الكبرى إلى الإسكندرية، وفندق "سعد زغلول" القديم بمحطة الرمل، حياة أخرى ساحرة أُسطورية، فكلّ التفاصيل تربط روحها به، هو فقط إنسانٌ بالسليقة، رومانسيّ فوق العادة؛ فهو يهوى الموسيقى ويعزفها، ويعشق البحر.

يصفّق" بابا" في صوتٍ مُبهج: يالّا يا ولاد، هانروح البحر.

تتقافز البنتان في فرحةٍ عارمة: هيه.. هيه.

وتفصحُ "منى" عن رغبتها: بابا، هانروح عند عروسة البحر؟!.

يردّ في حنانه المعهود: حاضر يا مُنْمن.

تبرقُ عيناها ببريق ساحر، فهي ستذهب إلى حيث تمثال أسطوري يُحرّك كلّ مُخيلة السحر بداخلها.

وتتقدّم أختها برغبتها: لا، أنا عاوزه أروح البحر. تقولها في صوت حزين.

ومحاولًا إرضاء الابنتين يوافقُ الأب: حاضر يا قمر، نروح البحر. تنظر "منى" مُرتابة إليه، يبتسمُ في طيبة وهو مدرك لمغزى النظرة، ويطمئنها: منى.

تردّ "منى": نعم. في صوت خفيض كسير الخاطر، فهي أقرب أولاده شبهًا به؛ شكلًا ورقَّة قلبه وحنانه، ويعلم مدى رقة خاطرها وعنادها وكبريائها أيضًا.

يطمئنُها كعادته: ماتخافيش؛ هانروح البحر، وعند عروسة البحر. وتقفزُ صارخة متعلقه برقبة والدها تقبّله من كلّ وجهه.

يتهلّل وجهُ "منى" صارخة: بابا حبيبي.

وصوت قبلات يملأ كلّ الدنيا، دنياها الجميلة بأبيها. وتستعدّ الفتاتان بلباس البحر وكلّ الأدوات، حقها.. إنّها الآن تدرك لماذا تعشق "الإسكندرية" هكذا؛ فهي اللقاء الأول خارج إطار شارعها بينها وبين حبيبها، بينها وبين أبيها. حقًّا في كلّ التفاصيل تجدُ أباها، تأكّدت الآن أنها تعمّدت أن تكون شبيهة له حتى شكلًا، على الرغم من أنّ ملامحه لا تصلح كثيرًا لفتاة على عكس ملامح الأمّ الرائعة الجمال وهو ما استأثرت

به أُختُها الكبرى، لا يهمّ.. فهي تعشق أن تكون جزءًا من نبع الحنان والطيبة المسمّى "بابا". إنه وحده يكفي بالنسبة لها أن تأخذَ قرار العودة، فهي لا تقوى على أن تحمله آلام فقدها، فلماذا تتردّد هكذا؟!، ماذا فعل لها لتقسو رغم كلّ هذا الحب؟!. وتتسارعِ مراكزُ ذاكرة السعادة في التحايل على هذا السؤال، في محاولة جاهدةٍ أن تشارك في القرار بمنتهى التفاني، وتزداد النبضاتُ الكهربائية في الزّخم وتنبيه الذكريات السعيدة.

وينكشف الغطاءُ عن حفل كبير، حفل تخرج فيما يبدو، يتجمع الكلّ في قاعة كبرى يتبادلون الأحضان والتهاني، ماهذا الزخم المُبدع من المشاعر، بالقطع.. فدراسةُ الطب أعوامًا كثيرة ليقضونها معًا، الأناقة والفرحة عنوان الجميع، وتأتي أرواب التخرّج السوداء، بغطاءِ الرأس المميز للخرّيجين، يا لها من فرحةٍ عارمة، طيبة هي وجوهُ الجميع، على الرغم من عدم معرفتها الشخصية لكثيرٍ منهم، فهي كانت دائمًا صامته متأملة خجلة، ليس لديها الكثيرُ من الثقة بالنفس، عجبًا!، لقد كانت مثالًا للثقة في النفس في صغرها.

يتسارعِ الجميعُ لارتداء الأرواب ويقفون صفًا، ويبدأ الطابور في التقدّم حيث التقاط الصور ومراسم الحفل، هناك شيء ما غريب، فالجميع

يتحدّث معها بطلاقة غريبة، تبتسم للجميع في ودّ وحب، ما هذا الإحساس المُفعم بالود؟!، كم هي رائعة الحياة في وجودهم، كيف سننفصل وتأخذنا الحياة، وتُسهب في حزن.. التقاط صور للذّكرى لا حصر لها، ما عاد هناك التزمّت الصارخُ في الفصل بين الأولاد والبنات، ها هو السيد النّقيب يتْلو القسم، ونردّد وراءه، نردده من قلوب عامرة بالإيمان والإصرار، ولحظة إلقاء أغطية الرأس بعد الانتهاء معَ صرخةٍ تملؤها الفرحة، متعة هي فرحة النجاح، يصعد الجميعُ إلى حيث الحفل المسائي، ويبدأ العرض على شاشة كبيرة، إنّها من ضمن ثلاثة يقدمون الحفل، وبدأت شاشة العرض في عرضِ صور الجميع، ما هذا؟!. لقد تغيرت صورهم، اشتعلَ رأسهم بلونٍ لُجّي مهيب، واشتعل التعريف بهم بقمم الشّهادات والمواقع الطبية، هي إذًا أكملت بكلية الطب، وكيف حصلَ الجميع– ومتى– على هذه الشهادات؟! نظرتْ مرّة أخرى إلى الجمع، وإلى اللافتات، واستمعت إلى صوتِها المشحون بالفرح وهي تقدّم الحفل موجهة كلامها للزملاء: السلام عليكم، النهارده يوم من الأيام اللّي مش بتتكرّر، يوم مستحيل كنّا نتخيله أو نتوقعه طوال الخمسة وعشرين سنة اللّي فاتت.

ويلتقط "ياسر" أحدُ أيقونات الدفعة الحديث: النهارده يومنا إحنا، يوم بنقول فيه إنّ مهما طال الزمن لازم هانفضل سوا، حتّى لو مرّت خمسة وعشرين سنة، وكمان قدهم.

ما كلّ هذه السنوات التي تراق على جانبي الحديث والحدث؟!

وأضاف "النقيب" قائلًا: النهارده كيوم استثنائي بنحتفل باليوبيل الفضّي لدفعتنا الجميلة، وندين بالفضل لكلّ مَن أصرّ على التواجد، ونُدين باليوم لـ (منى وياسر وغادة وعفت وعزة وسحر، وهالة) اللّي خلّوا يوم دفعتنا ده يبقى حقيقة.

النّقيب؟! نقيب الأطباء دفعتنا؟!، وتداركت واقع الأمر إنه احتفالٌ للمّ شمل دفعتها بكلية الطب. إذًا لقد عاشت حتى مرّ خمسة وعشرون عامًا على التخرج، يا له من زمن، أحداث الحفل تفرضُ نفسها على الذاكرة، تنظر مرة أخرى ولكن من خلال مراكز الذاكرة، كم هُم متميزون، لقد أصبح زملاؤها نجومًا تتلألأ في سماء الطب، كم كانت فخورة بهم، بتواجدها في وسط نخبة ما كانت يومًا تظنّ– وهي صغيرة– أنها ستستطيع أن تتواجدَ بالقرب من قيمتهم وقامتهم، ولكن تقلد كلّ موقع

من هذه المواقع زميل وصديقة وإخوة، ما هذه السّعادة الغامرة، كيف اختزلتْ ذاكرتها خلال العمر في هذه الحفلة؟! الإجابة رأتها في كمّ سعادتها وانطلاقها خلال فقرات الحفل، كيف انطلقت لهذا الحدّ وهي الصامتة دائمًا، حتى كاد ألّا يتعرف عليه أحدٌ طوال فترة التحضير للقاء؟، كثيرًا ما سمعت.. هل حقًّا كنتِ معنا بالجامعة؟، هل أنتِ زميلتنا بنفس العام؟!، وألفُ هل.. وهل، حتّى أدركت لمَ كانت فترة الجامعة بالنسبة لها ليست بالذاكرة، فهي أسقطتها واقعًا وذاكرة يوم أُكرهَت على دخول كلية الطب، يا لها من خاسرة، ولكن ليس الآن، ليس بهذه الثانية، فهذة ثانية السعادة، ابتسمت بسعادة بالغة حتى رانتِ ابْتسامتها على وجهها المسجّى على الأرض، حتى لقد ظنّوا أنها ابتسامة مودّع.

وبدأ المسعفون ودكتور "عمر" في اتّخاذ إجراءات مكثفة، ترى هي نظرة "عمر"، تعرفه جيدًا وتعرف أنّ التوتر والقلق أحدُ مكوّناته الشخصية الأصيلة، ودّت لو ربّتت على كتفه مُطمئنة له، لا.. لا تقلق عليّ في هذه اللحظة تحديدًا، فأنا بين زملائي، ليسوا زملاء عاديين، إنّهم صفوة القلب بدون أن أدري، فحقًّا مَن يملك أن يمنحنا سعادة كهذه مِن لقاء بعد ربع قرنٍ لم نلتقِ فيه مرّة واحدة، كيف يمكن أن نجد لهم مسمّى يليق بروعتهم بين فقط ثمانية وعشرين حرفًا؟!.

سارتْ بين جنبات وفقرات الحفل "كملكة" تملك العالم والسعادة، فهي تملك كنزًا لم تكنْ تدركه، الجميع يقترب في ودّ بالغ.

اقتربَ منها د."يس"؛ أستاذ ومدير إحدى أكبر المستشفيات المتخصّصة: "منى"، أنا باشكرك جدًّا على اليوم ده، أنا مافرحتش جدًّا في حياتي، ولا حتّى يوم فرحي. يا إلهي! يا له من شعور متدفّق يروي الحياة.

ويأتي إليها د."إيهاب" حاملًا إليها فنجانَ قهوة حينما أنهكها التعبُ وجلست، ممازحًا: شوفي يا"منى"، أنا عمري ما حملت قهوة لحدّ، حتّى لمراتي. بسّ انتِ بجد تستاهلي عشان كمّ السعادة اللّي انتِ السّبب فيه النّهارده.

لا.. هذا كثير، هذه الأنامل المبدعة المتخصّصة في جراحة المخ والأعصاب؟!، ماذا فعلت هي لتستحق؟!. ويأتي "أيمن" في المرتبة الأولى من الشّعور بالامتنان فصامتٌ هو بطبعه، أو لنقلْ إنّه يتكلم بلغة الصمت، يتابعها بعناية وامتنان يفوق العادة، حقيقة.. إنّ الاهتمام والرعاية ليسوا بحاجة إلى لغة، يقترب منها أيمن آخر قائلًا: "منى"، إزيّك؟

تردّ في ودّ وقُرب: "أيمن"، إزيّك؟ والله مبسوطة إنّي شفتك.

ويتحدّث بلكنةٍ بلدتها، فهُم من نفس البلدة: مراتي عاوزه نتصوّر كلنا صورة عائلية.

توافق في ترحابٍ بالغ، فهُم في قرارة النفس أهلها: يا خبر أبيض! ده أنا أتمنّى. (مباركة له على جائزة دولية حصل عليها).

أيمن: الله يبارك فيك، بسّ منّك لله.

"منى" ضاحكة بودّ كبير: ليه بس؟!.

ويتحوّل صوته إلى نبرة تذمّرٍ رائعة في مضمونها تثير الابتسام من طيبتِه وتلقائيته: هو انتِ بتتحكّمي فينا كده ليه؟!، بِدل كاملة إيه اللّي أصرّيتِ نلبسها في الحرّ ده؟! ده انتِ مُفترية يا شيخة!

وتعود "منى" لشبهِ صرامةٍ مازحة: الله! عشان الصور يا أيمن لازم تطلع رسمية ومتميزة.

يعترض مُشيحًا بيده في عفويته المعهودة: أنا محدّش يتحكم فيّا كده.

تضحكُ "منى" بصوتٍ مسموعٍ، واستبداد ودّي: لا أنا أتحكم براحتي، عشان كلّ حاجة لازم تبقى جميلة، يا عالم.. يا "أيمن" الصّور دي هانتصوّرها تاني واللّا لأ؟

أيمن: برضه مُفترية، أنا لابس أهو وبادعي عليكِ.

ويضحكان في ودّ وصداقة لا تستوعبها، ويحضرها تساؤل لافتٌ قطع ضحكتهما، ويبرق في خاطرها تساؤلٌ أدهشها ولا تدري في خاطر أيّ منى: "أيمن"، هو احْنا آخر مرّة اتقابلنا إمتى؟!.

تأتيها المفاجأة التي يُلقيها في بساطة وهو ذاهبٌ للاندماج مع باقي الأحبة: في الامتياز من ٢٥ سنة.

وتتعجّب أيّما عجب، كلّ هذه السنوات؟!، إذًا كيف نتحدث بمثلِ هذا القُرب وهذه الحميمية؟!.

حقًّا، عندما يمرّ بنا زمن معين نحتاج إلى وقفة، حتى وإن كان ما تبقّى في العمر لحظات، وقفة لاتّخاذ قرار، أو تعديل مسارِ حياة، قد لا يمهلنا الوقت، ولكن أبدًا لن نترك للآخر حينَها أي يدٍ في السيطرة على واقعنا،

إنّها لحظة نكون فيها نحن، تلك الـ "نحن" التي فرّطنا فيها، وذبحناها قربانًا لكلّ من سوانا، وتحت مسمّيات نكتشف أنها لا تعني للآخر شيئًا سوى أنّه يستفيد من وجودنا، ولا يهمّ إنْ كان يرانا أو لا يرانا، لحظة نقفُ نلملم كلّ مُعطيات حياتنا، ونضع نظرياتنا الخاصة بمدْلولاتنا الشخصية، ونُصدر قوانين تطبق فقط لنا، ولا شيء يهم، إنّها حريتنا التي طالما اعتنقناها كفكرة، ولكن الآن وجب التّنفيذ، وتأكّدت منى أنّ الحفل هذا كان نقطة التحول، اليوم فقط استعادت ثقةً كانت فقدتها منذ يوم كانت طفلة رقيقة، لحظة يُتمها حين سافر والدها، اليوم أصبح لها ألفُ أب وألف أخٍ وألفُ سند، وجلست متهالكة على أريكة قريبة، فلقد أرهقها الحذاءُ ذو الكعب المبالَغ فيه، ولم تكُ تقدر على التخلّي عنه؛ فهي مَن أصرّت على الجميع بالحضور بملابس رسمية. ويقترب د."أحمد"، إنّه الآن أيقونة مصرية في مجال طب القلب، وهو مهذّبٌ فوق العادة، محدثًا إيّاها بنبرة متوهجة بامتنان: دكتورة منى، أنا طبيب قلب، ورأيت كثيرًا من القلوب، ولكنّك اليوم تملكت كلّ القلوب ببساطة، زوجتي وأبنائي الآن يحسدونني، وسألوني هيّ د. منى فعلًا دفعتكم؟!، طيّب شكلها أصغر كده إزّاي؟!.

"منى" باسمة: أصل لسّه ماكمّلتش تعليمي، أنتَ اللّي اتسرّعت وبقيت أستاذ. وابتسمَا في هدوء كشخصيته.

ابتسمَ في هدوءٍ وثقة من الفرح: بجدّ أنتِ خلّتينا نرجع لأحلى عُمر وصحبة، أنت حسّستينا إنّنا ممكن نفرح تاني، شكرًا بجدّ. وينسحب في رزانته مبتسمًا عائدًا إلى طاولته مع أُسرته.

وتمّ التنويه عن فقرة "منى"، وهنا يقترب منها زميل طالما احتارتْ في التعامل معه، فهو بلحيته الطويلة غير المُشذبة يثيرُ التحفّظَ في تصرف مَن أمامه، ولكنه طوال تواجدهم على صفحاتِ التواصل الاجتماعى كان خفيفَ الظّل جدًّا، طيب الحضور وإن كان يدعو لتعدّد الزوجات وبدأ بنفسه، وكم كانت هذه نقطة مثيرة للجدل بين الجميع، ولإطلاق الكثير من المزْحات الودّية، اقترب منها في ابتسامة سلام رائعة، وبمنتهى السماحة حدّثها قائلًا: د. منى، يقول الرسول الكريم "مِن أحبّ الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب مؤمن"، وأنتِ اليوم أدخلت السرورَ في قلوبنا جميعًا، نحبّك في الله.

يا اللهّ! ما هذا السكون والسّلام والسماحة والعبقرية في بساطة التعبير عن الود؟!.

عجزتْ عن التعبير، ولم تجد إلّا ردّ الحبّ الروحي الذي أشاعه: ربّنا يكرمك د."حوالة"، أحبّك الله الذي أحببتني فيه. واتّخذت موقعَ الجديّة والحرص والالتزام في التعامل.

وفي صوت متردّدٍ خفيض، قال لها: ممكن سؤال؟.

منى: إتفضّل يا فندم، طبعًا.

وكان د."حوالة" يبدو جادًّا حقيقة وهو يقول على الرغم من الابتسامة: أنا جيت شويّة متأخّر، وعمّالين ينوّهوا عن شيء مش عارفُه، هي إيه "فقرة منى" دي؟!.

انْهارت "منى" بالضّحك، ونسيت أيّ موقع جادّ اتخذت، فلقد تحدّث وكأنّ هناك فقرة خارجة عن السياق، حقًّا إنها فقرة كوميدية ولكن ليست بخفّة ظلّ إلقاء السؤال.

وتخلّل الحفل الاحتفاءُ بثمانية من الزملاء اقترنوا من الدفعة ذاتها، كم كانت دهشتها مع أنّها المنظمة، فمتى اقترنوا، وفكرة الاقتران بين الزملاء لم تكُ تخطر لها على بال، حقًّا إنّهم كانوا يَحيون الجامعة حياة كاملة، في الوقت الذي أسقطتها كاملة من حسبانها وعمرها، لا.. ليست كاملة، تذكّرت الآن وهي تراه بين الجموع، إنه قصة حبّ دامت كلّ سنوات الجامعة، قصة ليست كأيّ قصة نعرفها.

منذُ اليوم الأول، حرفيًّا اليوم الأول للحياة الجامعية، التقت عيناهما، والتقى كلّ الوجدان، وفقط.

تذكّرت الآن أوّلَ نظرة بينهما في مدرّج سنة أولى حيث كان يتمّ الفصلُ بين الجنسين، فكان مدرج الأولاد على اليسار، حيث اتّخذ موقعه الذى أضحى ثابتًا لأعوام، وفي لمحة لم توثّقها التقتْ عيناهما، كم هو وسيم، خجول، صامت، كم لعنت الصمتَ بسببه، مَن يقول إنها لغة العظماء؟!، قد يكون هكذا حين الغضب أو حين الألم، حين أي شيء؛ إلّا هذه النظرة وهذه المشاعر، إنّها نظرة لقائهم، وبدأ حوار دائمٌ ويوميّ..

يبدؤه دائمًا: صباح الخير. ووجهُه يشوبه ألفُ ألفِ خجل.

وبخجلٍ كلّ الحياة تردّ "منى": صباح النور. بصمت غير مسبوق، فكلّ يوم لا بدّ من نظرة الصباح، ونظرات يومية للاطمئنان..

ويُهديها كلّ يوم كلمة: أُحبك.

وتتلقّاها منى كما لو كانت زهرة، تتلقّاها كلّ صباح تبعث الحياةَ في باقي اليوم: وأنا كمان لو هوّ ده الحب، هو ده؟!.

ويزيد من حيرتها حين يردّ كلّ يوم نفسَ الرد: مش عارف، بسّ أنا مش شايف غيرك، باحضر بسّ عشان أطمّن عليك.

ولا تجدُ مفرًّا من البوح: وأنا كمان.

ويُكمل ناصية البوح معها، ولها: بتوحشيني.

وترْجوه "منى" أن يشقّ جدار الصمت: طيب تعالى كلّمني.

يخفض عينيه، وتتمايز ملامحه من الغضب: مش هاينفع.

في رجاءٍ كسير تُردد: نتصرّف.

وكعادتِه، وحيرته، يردّ عليها: إزّاي؟، المجتمع ده صعب وعجيب ومش هايسمح لنا، أنا باتعذّب.

ولا تدري ماذا تفعل، فقط تريد أن تتمسّك به معه: طيب أنا أعمل إيه؟!

ويحني رأسَه كأنه طقس يوميّ هامسًا: مش عارف، بس بحبك، بتوحشيني.

ويشتعل وجهُه خجلًا كعادته، ويبدأ في الرسم على أوراقه مداريًا دموعًا تترقرق في عينه، ثمّ يرفع عينه ليبدو منهمكًا في المحاضرة. سنوات طويلة قضياها في كلية الطب، تخللتها العديدُ من أحداث القلب بالنّسبةِ لها، أما هو فقط أحبها، وكلما تقتربُ من ارتباط أو يُحدثها أحد تلجأ إلى عينيه، تلوذ بهما، ولا مجيب إلّا صمت وخجل وقيود.

تواجهه في عتابٍ مُحب: هانفضل كده؟!.

يردّ وهو يتخفّى وراء قلّة حيلة مفروضة عليهم: لا، أنا كلّ يوم بحبك أكتر.

وفي عصبية، وعنْ غير اقتناع بالموقف تتساءل "منى": والحل؟!.

مؤكّدًا: مفيش حلّ، لن يفهمنا أحد، ولن يرحمنا أحد.

قالت "منى" متمسّكة بأذيال الرجاء: نحاول، أنا مستعدّة لكلّ حاجة، بسّ اتكلم.

مكرّرًا في ذهولِ مُحبّ هائمٍ، وبلا أمل: مش هاحبّ غيرك.

تذكر "منى" جيدًا، فلقد مرّت كلّ السنوات وكلّ الفرص بدون كلمة واحدة متبادلة، واليوم هو هنا، مِن ضمن كوكبة العلماء، ينظرُ لها نفس النظرة، ويدور نفس الحوار بشكل آخر.

تشهق "منى" باكية: ياااه، افْتقدتك.

تترقرق عيناه بدموعِ وجْدٍ: انتهيت من غيرك.

غيرُ مصدّقة، ورافضة لما يقول، تساءلت: أنت انتهيت؟! أنت متصدّر تخصّصك ومتميز، أتابع كلّ جديدك.

يردّ مبتسمًا في سخرية: ده أكبر دليل على نهايتي من غيرك.

"منى" أردفت وهي تستدعي أملًا واهمًا: أتمنّى كانت حياتك سعيدة.

تساقطتْ سنواتُ الفراق على خدّه، وقال ممتنًّا: الآن أصبحت حياتي اللّي فاتت واللّي جايّة سعيدة لأنّي شفتك.

وتترقرق في عينِ "منى" نفس الدّموعِ.. إحنا واحشيني كتير.

وسرى صوتُه بكلّ جوارحها: كده كفاية عليّا من الدنيا.

دارَ الحوار كعادةِ عيونهم عند اللقاء، إنّه يقترب منها الآن في هدوء، إنّها المرّة الأولى التي يخْطو فيها تجاهها، ترى هل عادَ إلى رُشده، أم آنَ الأوان لوقت اكتساب حريته، واقترب منْها، وبوجهه نفسُ الحسن ونفس الخجل.

: منى، أنا مبسوط وسعيد بجد.

ردّت بصوت مسموعٍ، ولأوّل مرة بينهما صوت مسموع: يا ربّ دايمًا. ولم تستطعْ أن تسبق اسمَه بلقب دكتور.

وانسحب، هكذا فقط؟!، كلّ هذا العمر منذُ أول لحظة بأول يوم بأوّل عام بالجامعة للآن! فقط أربعه كلمات؟!، فلا هوَ تحرّر ولا هي تحرّرت، فقط اعتبرتها قمّةً أخرى من قمم السعادة، وهي رؤيته ورؤية إحساسِه الذي تأكّدت أنه أبدًا لن يموت، وإنْ كان لن يخرج للعلن حتى لها.

كم هو مهمّ أن يكتشف الإنسانُ أنّه مازال حلمًا لدى أحد، مازال أملًا لم يكتمل، فنحن كثيرًا ما نكون بحاجة أن يكملنا خيالُ الآخر، ويُجملنا بأملهِ فينا، فالواقع عادة ما ينحر من جوانبنا العديد، ولا يُفرق فيما يقتصّ منّا، وعادة ينحرُ مِن الأجمل فينا وإنْ جاهدنا فسيكون فقط للإبقاء على بعضٍ منّا، فكوْننا نظل أملًا أو حلمًا لم يكتمل، يكون أحيانًا أجمل ممّا نصبو إليه علّنَا يومًا نصلُ للاكتمال كما نُحبّ ولو في خيال مَن نُحب.

أنهكها الحفل، وكثرة أحداثه، فارتمتْ في أحضان زميلاتها وصديقاتها، وكأنّ يومًا لم يمرّ بدون أن يكُنّ معًا، لم يبدُ السنّ على معظمهنّ بقدر السنوات التي مرّت، من الجائز أن هذا ما خدعها في أوّل الأمر بأن هذا حفل التخرج، كلهن جميلات مُبتسمات، يحدوهنّ الفرح، ويتملك من قلبهن الود، حديث ذكريات يمتدّ بينهن كسلسلة من نور يُحيي العمر، سيلٌ غامر مِن سعادة كانت تحتاج إليها، يظنون أنها أُرهقت في سبيل

الإعداد والتنظيم، ولكن حقيقة الأمر هي كانت تغرق في خضمّ أوجاع الحياة، وظلمها وفقدان الثقة بكلّ شيء حتى نفسها، فانْهمكت في البحثِ عن قشّة الغريق التي هي كلّ الأمل، وإن كان ليس هناك أيّ منطق في أنها ستنقذه، ولكنه كالعادة الأمل، فالإنسانُ يحتاج فقط أحيانًا لمجرد ملمس تلك القشة، ليستنهضَ عزمه وعزيمته مرّة أُخرى، ليصرخ قائلًا: نعم، أنا أستطيع، نعم.. سأنجو.

ماما، ماما. نداءٌ انتشلها من عُمق سعادتها بصحبتها، ليلقي بها إلى قمّةٍ غير مسبوقة من السعادة.

ماما؟! حتمًا لفظة تُشيع السعادة، وخاصّة لمَن فقد كلّ معنى لهذه الكلمة مُسبقًا، التفتت لمصدرِ الصوت، طفل بعمر الحادي عشر، كحيلُ العين البنيّة اللون، باسم الوجه بابتسامة ساحرة يحاول جاهدًا أن يرسم الغضب على وجهه، ويشدد من قبضته على ملامح وجهه، فتظهر الغمزات في وجهه بوضوحِ أكثر، وأجمل يوسف: ماما، "فجر" بتضايقني.

"منى" وقد سحرَها عذبُ صوته، وإحساسها الخاص به، لن يوصف الإحساس، قولًا واحدًا لا وصف، فقط إن روحها تسري في جسدِ هذا الصّبي: "يوسف"، مش معقول يا حبيبي، أنت شايف مشغولة ازّاي.

يردّ في عصبيّة طفولية: ماما، خلّيها تقعد ساكتة، مش هافضل رايح جاي، أنا تعبت.

"منى" وهي تحتضنه، يا الله! كأنّه قطعة أُحجية وضعت في مكانها حين احتضنته، فاكتملت: حبيب ماما، أنت الراجل، خلّيك كبير وساعد ماما.

يرفع حاجبيه في تعجّب: أنا كبير؟! ماما، دي "فجر" داخلة الجامعة، أنا مش الكبير، ومش هاعمل حاجة تاني.

وكان لرنينِ كلمة أنّ ابنتها ستدخل الجامعة وقعٌ صادم، أين كانت هي كلّ هذه السنوات، وماذا جعل كلّ التفاصيل تسقط من ذاكرتها حتّى تحتاج صدمة كهذه لتستعيدَ مفرداتها، نظرت "منى" إلى "فجر" وكأنّها ترى نفسها في المرآة، ولكن فجر أجمل، أجملُ بأعتاب الشباب التي ستبدأ تخطو عليها، وببراءتها المتردّدة، الهشّة، وابتسامة ألطف ما يكون وإن كان يشوبُها بعضُ الخبث الأخوي المعهود.

وأيضًا، تتحدّث "فجر" في تذمّر: شايفة يا ماما، يوسف مش راضي يجيب لي حاجات من العربية.

وتعاتب ابنتها في استعطاف، فهذه لحظاتها الخاصة: "فجر"، مش هاقعد أحلّ مشاكل زي دي في الحفلة، مش ممكن، اكبري.. ارْحميه.

وابتسمت "فجر" في خبث: حاضر يا ماما، تؤمري يا حبيبتي. مُلقية بنظرةٍ ساخرة إلى "يوسف" الذي يفهم التحدّي فينفجر قائلًا: ماشي يا فجر، حاضر.

وينتهي المشهدُ بابتسامة رائعة الحسن وخفّة الظل من "فجر" قائلة: حبيبي.. حبيبي، حبيبي.

تبتسم "منى" في رضا، فالعلاقةُ بين الإخوة دائمًا ما تكون العلاقة السائدة في المنزل. ابتسمت في رضا، فكم تمنت أن تحيا سلامًا عائليًّا كهذا.

وانفضّ الاشتباك الحميم بين الأخوين، وعادت إلى مراسم الحفل، وابتدأت الموسيقى العربية تُردّد أغانٍ مختارة بعناية، وبطلب خاصّ لكلّ مَن أراد، وتلألأ القمر على صفحة النيل، وبدأ الحضور يقلّ في العدد،

وتحرّروا من قيودهم الرسمية في الملبس، والحوار.. صارت الأمسية عائلية أكثر منها احتفال أو حفلة. هنا، اتّخذت "منى" قرارًا مؤزّرًا بقوتها التي استمدّتها من كلّ مشاعر هذا اليوم، قرّرت أن يكون هذا حقًّا حفلَ تخرّجها، فهي لا تدري كيف سارت بها الأيام، لا تسعفها الآن الذاكرة، ولكنْ ستبدأ حياة ذاكرتها من هذه اللحظة وستطلبُ مساعدتهم متى شاءت وأنّى شاءت، فلقد اكتسبت مِن القشّة طاقة تكفي لحياةٍ كاملة أُخرى. حقًّا ليس الأهل بأبناء الرّحم، وليست القلوب بالعشقِ المعهود فقط كرجال ونساء، ومُخطئٌ مَن يقول إنّ المسافات الزمنية أو المكانية تصنع الفرق، أو تستجلبُ الجفاء، فإن كلّ هذه المعطيات الفيزيقية تفقدُ كنْهَها حينما يسود الموقف المشاعر، وتتصدر الروحُ المشهد، وتأخذ بزمام الحياة، إنّها لحظات تجُبّ سنين مِن الألم، حقًّا كمْ هو ظلوم الإنسان حين يترك مثل هذه اللّحظات تنساب هَدرًا من بين يديه، أو تغدر بها الذاكرة، ولا تتوّجها فوق كلّ الذكريات بتاج البقاء.

يبدو أنّ مراكز السعادة قد استقطبت في عنف انتقامسّ كلّ الشّحناتِ الكهربائية المتزاحمة للإلحاح عليها، إنّه مازال هناك الكثيرُ والكثير من سعادة.

ويترامى إلى مسامعها صوتُ دقّات طبول، حتمًا هي ليست طبول الحرب، فلقد انقضت هذه الطقوس منذ قرون، يمتزج صوتُ الدقة بجُملة غريبة.. بسم الله الرحمن الرحيم، ها نبدأ الليلة، أيّة ليلة هذه؟!، اقتربت في تردّدٍ وتوجس، يا لها من مفاجأة سارة تُضاف إلى لحظات سعادتها، إنّها هنا، عروسٌ بكامل شبابها وأناقتها، بل وابتسامتها، لامعة عيونها بفرحة تبْدو طبيعيّة كأيةِ عروسٍ يومَ عرسها، فقط ما خلف الابتسامة تعرفُه هي.. وهي فقط، ومن باب الفضول تركت وجودها وانسلّت أعينها لترى مَن هو، التقت نظراتهما مرة أُخرى، وابتسمتْ لعنادِه وإصراره على مساعدتها في العودة، التي لا تعلم للآن أهي عودة لهذه الحياة، أم عودة إليه في حياة أُخرى، فهي الآن تعلم، وترى الكثير، وعلِمت من أين أتت بعنادها، إنّهما "حورس" معًا، فهو يُصرّ على التواجد بشكل حثيث، ويُصرّ عليها أن يُذكرها بوجوده الدائم في كلّ تفاصيل حياتها، ويُجمع لها قطر السعادة التي عاشتها وأحاطها بها، علّها تُدرك كم كان دومًا يحيا فيها.. وبها.. ولها.. ولهما، فها هو يتجلّى مرّة أخرى في شابّ يحمل من لونه الأسمر أبدعه، ومِن حنان نظرته أعمقها، تبادلت النظرات، كم احتواها لون العيون هذه، بريقها، لمعتها الخاصة عندما تنعكس صورتها عليها فتبتسمُ في حياةٍ لا تدري متى عرفتها، إنه حيث يفقد التّوقيت عاديّتَه، ويتجاوز أعمارًا

في لحظات، فمنذ لحظات لم تكنْ تعرف مَن هذا، ومَن يكون، كيف تَكَوّن له في القلب ما يجعلها ترتدي ثوبَ زفاف، وتبتسم في سعادة، إنها ليست مجرّد "بسم الله الرحمن الرحيم هانبدأ الليلة"، إنّها بداية حياة كاملة، ونهاية حياة كانت– مجازًا– كاملة أيضًا.

تبخْترت على مِهاد الذّكرى في غنجٍ وثقة عروس في إعادة لحفلِ زفافها، فتتدارك ما فاتها وتتجاوز ما قد تكون أخطأت فيه، تجول بين الحضور، وترى.. ويا لروعة وعجبِ ما رأت! لو تمنّت أن ترى مُلخّصًا لحياتها السابقة ما كانت ستُجيد ترتيبَها بهذا الإبداع، فالجميع يتراصّ بترتيبه الزمني في حياتها، لقد حرِص الجميعُ على الحضور؛ مَن أحبّوها، ومَن تمنّوا أن يكونوا هُم الطرفَ الآخر في هذا اليوم، ومن وترهم التّرك، والأروع مَن تمنّى لها كلّ السعادة ودموعهما تترقرق معًا بامتنان وعرفان، عجيبة هي الذكرى، هل هي تُجمل الأحداث والأشخاص، أم نحن مَن نفقد صفاء الرؤية في خضمّ عنفوان المشاعر حين معايشة واقع سيكون هو غدًا الذّكرى؟!

على كلّ حال، فكلّ ما ترى الآن جميل، وكل مَن تراهم لهم في القلب جمالٌ في مكان ما، وكانت حقًّا جميلة، باسمة، سعيدة.

و" بسم الله الرحمن الرحيم" انتهت الليلة وبدأت حياة، وبما أنّها قررت أنّ هذه اللحظات لتذكر مفردات السعادة حاولت "منى" أن تذكرَ كلّ ما هو سعيدٌ بحياتها التي بدأت لتوّها، ولكنْ عجيبٌ هو الزواج في نسيجه، فلا هوَ يسير على التوالي أو التّوازي معَ خيوط الحياة، إنه ضفيرة متشابكة معقدة التّفاصيل، كلّ خيط تحاول التمسك بأوّله يحوي كلّ التفاصيل، مُفردات كلّ حياة، فلقد فرحتْ كثيرًا، إنها نعمُ الله التي لا تُعدّ ولا تُحصى، فترى وجه وليدتها الأولى، لم ترَ أبدع من هذا خلقَ سبحانه، وتتخلّل الذكرى نفس النظرة التي طالما أُخذت بها، تشحذُ من عزمها للتقدم برغم كلّ شيء، ولكن كيف تسير الحياة بخطى ثابتة وهي في أصل خلق الحياة سُنّتها التغيير! ما عادت نفس النظرة تُحييها وتُحيي الهمّة والتحمل والحبّ في داخلها؟!، وهي المفردات التي نتزوّد بها لمسيرة الحياة، كم هو مُخطئ مَن يظن العادية والاعتياد في الحياة، فما هو أصبح عاديًّا بالنسبة لك ليس عاديًّا في لُبّه، وهو على صعيد آخر متفجرٌ بحياة خاسرٌ مَن لا يراها، فإننا عندما نعتاد الأشياء نفقدُ البهجة، وعندها تتساوى قيمة كلّ شيء، فلاغالٍ ولا رخيص، حتى نحن حينها نفقدُ قيمتنا، هل حقًّا في هذا المنحنى نستطيع الاستمرارَ بلا شغف أو ثقة أو أمل في

أن بوصلة الاهتمام ستستعيد اتّجاهها؟!، وبدون تضحيات جسام أو خسائر فادحة فوق الاحتمال؟!

لا تُضحّي، عفوًا.. لا يجب أن يظنّ أحدٌ أنّه يقوم بالتضحية من أجل أحد، حتى لا يحيا بداخل نفسه آلام التضحية وفي واقع الأمر لا أحد يستفيد سوى رصيد الألم، لا.. لا، إنّها لحظات السّعادة لن تتذكّر سواها، وإن تشابكت أوصال المشاعر، يا الله! إنّه ليس وقت الإرهاق الذهني فما يعتمل فيها، يكفيها الآن.. تتصارع كلّ الأحداث بداخلها، كيف تحتمل مفردة واحدة كلّ هذه المعاني، الزواج.. حقًّا يجب أن لا يتزوّج إلّا مَن هم مؤهّلون لهذه المفردة، نحتاج كثيرًا بعدما أصاب مجتمعنا وإيماننا وحتّى نسيجنا الاجتماعي من عصف وانشطار، وخلط فاقَ في قسوته اختلاطَ أنساب وأحساب، نحتاج لإعادة تقييم أنفسنا وقدراتنا، فلا نتزوّج إلّا حين تستحيل الحياة بدون شخصٍ بعينه، ليس فقط حديث القلب، إنّه حديث حياة، حديث حرية وسعادة وبقاء، تكون أو تكون، ليس هناك اختيار آخر، فقط حينها نستحقّ أن نحيي الزواج، وإلّا فلنمرح في هاوية الازدواج، ويا لها من هاويةٍ بلا قاع، لطمت الفكرة ذاكرة "منى" المُنهكة من الهرولة بين ثنايا العمر وتلافيف الحياة. تُرى.. هل هي سقطت من

على سطح منزلها القديم؟!، أم من على قمّة أملٍ تلاعب بحلم طالما داعبَ خيالها؟ أم هي لبّت نداءَ تلك الهاوية؟!

وبينما تحاول نسجَ رداء من السعاده تتوشّح به ضدّ رياح الحزن التي تجول بخاطرها، تشدّ يدٌ بحميمية على يدها، وتربّت على جبينها، تُعيد ما تناثر من خصلات شعرها على جبينها، مردّدة بصوتٍ يخنقه الحنين: منى، بلاش تمشي، مش دلوقت، مش بالطريقة دي.

إنّه صوت "عمر"، د. عمر هكذا ينادونه، ويأتي صوت مُتسائل: هوّ حضرتك تعرفها يا دكتور عمر؟.

ويردّ "عمر"بصوت هزمتْه الصّدمة أكثرَ ممّا أوهنه الزمن: طبعًا، دي د."منى" زميلتي، كانت ساكنة هنا.

ويعود فيسأله: طيّب ننقلها، واللّا مش هانلحق؟!.

ولأنّه يعرفها جيدًا هزّ رأسه في استسلام قائلًا: إحنا مش هانلحق حاجة، "منى" مش هاتعمل إلّا اللّي هي عاوزاه.

وينظر لها في استجداء، وبدأتْ تلمح دموعه، لقد بدأت تنساب في استسلام، يُناجيها: "منى"، أنا آسف، أنا أذيتك، بسّ كنت بحبّك ومش فاهم، قسيت وغلطت، وباتعاقب طول عمري، مش بارتاح إلّا لمّا بفكّر فيكِ، "منى" أنا عارف إنّك سامعاني، حتّى لو ماتكلمتش، وعارف إنّك تقدري حتى في الوقت ده تاخدي قرار، دايمًا بتقدري، منى.. ماتروحيش عشان خاطري، لو لسّه فاكراني، أنا مش هاضايقك أبدًا، بسّ كفاية إنك موجودة.

وأحنى "عمر" رأسَه في استسلام لقضاء الله، وانتظارًا لقرار "منى"، فهو يعرفها أكثر من أيّ أحد آخر، ويعلم أنها متى أرادتْ ستفعل، لحظة صمتٍ رانت على جميع الحضور وجميع الأزمنة الحاضرة، فقط ومضاتُ السعادة التي أبت أن تتوقف، فلا وقت، لا وقت، فلقد اقتربتِ الساعة، بل اقتربت الثانية، فإلى ثانية ثانية.

١٤ ثانية

إنّ كلّ لحظة سعادةٍ يحياها الإنسان هي عمرٌ طويل، وإن كانت مساحتُها الزمنية قصيرةً جدًّا، فلماذا نُنكر إحساسنا بها؟ ولماذا نتمتّع بتذكر الأسى ونرثى لأنفسنا؟! فنسبيّةُ الزمان والمكان هي رحمةٌ من الله لنستوعب الحياة، ونستوعب آلامنا، وتستوعب الحياةُ سخطنا الدائم حتى على معطيات السّعادة، ودائما ما يكون أسهل شيء هو نسيان لحظات السّعادة، فقط نسترجعها كذكرى، مجرّد ذكرى، وليس في كثير من الأحيان، إنّه فقط حين يشطرنا الألم، أو في اللحظات الأخيرة من الحياة كما هو الحال الآن، كيف غمرَ النسيانُ كمّ السعادة التي كانت تحياها كلّ إجازة صيفيّة، حين تذهب إلى جدّتها في القرية، "جدّتها" أجملُ مَن رأت عينها، ليس جمال الشّكل وإنْ كانت سيدة برغم كلّ إجحاف المجتمع لها، فمازالت تحتفظُ برونق الأُنثى المحبّب، ليس هذا بيت القصيد، ولكن ما هذه الهالة النّورانية التي تحيط بجدتها؟!، لم تهتم كطفلة، فقط تذكرُ مدى سعادتها حين تعلم أنّهم ذاهبون لقضاء بضعة أيام هناك، إنّها إذًا المغامرة والحرية، وعالم سحري آخر من عوالم السعادة،

فبيتُ جدّها لوالدتها ليس كبيتهم، فهو منزل ريفي كبير، يؤدّي إلى حوش مكشوف في المنتصف بغير سقف، يا الله! كم أرعبها، مؤدّيًا إلى غُرفٍ كثيرة مساعدة، تذكرُ غرفة الفرن وهي متّسعة جدًّا لتحتمل فرنًا بلديًّا، وجانب كامل مقام فيه عددٌ من المواقد الحجرية البسيطة؛ الكانون، ومساحة كبيرة تحتمل عددًا من النسوة الريفيات حين المساعدة، وتضجّ الذكرى بأصوات متلاحقه تأتي على سيرة باقي سيّدات البلدة، وتتعانق رائحة الخبز الريفي الشهية مع الخوض في كثيرٍ من خصوصيات البيوت الريفية، وكم من أسرار استعصى عليها فهمُها كطفلة وإن كانت قد بدأت عامًا بعدَ عام في تبيّن ملامح وجهٍ آخر سريّة للحياة التي تبدو بسيطةً مُطيعة هادئة، وجه رفضت التعامل معه، إنّه وجه العيْب والحرام، وكالعادة يتفوّق العيب على الحرام، وتتخابث السّيدات في همزٍ ولمْز، وضحكات على فلانة وفلان، ولا تهتمّ لهم كثيرًا، فعادةً ما تكون في حالة تربّص وتصيد، فقبل الانتهاء تفوزُ هي وإخوتها بـ "قبّوري" وهو قطع من باقي العجين تخبَز في صورة خبزٍ دائري صغير محشوّ بالزبد والسّكر، ويدخل الفرن، يااالله! يا لها من جائزة تستحقّ الصّبر، ويخطف كلّ منهم القبّوري الخاص به، ويختفون تطاردهم رائحةُ الأرز المعمّر المحشوّ بالحمام، وتُعربد على سطحهِ القشدةُ الفلّاحي، يا لها من سيمفونية رائعة، يعلن

عزفُها نهايةَ خبيز الصباح، وفترة هدنة تستغلّها القرويات في المزيدِ من الهمز والأسرار، فيخطف كلّ منهم كنزه، مسرعين إلى حجرة الخزين التي تنبثق من يسار غرفة الفرن، ليكملوا مسيرةَ التصنّت على الأسرار، وكانت متاهة بالنسبة لهم ولكنّهم أجادوا معرفة دهاليزها، وأتقنوا فنّ الاختباء بها، تذكر كمْ كانت جدّتها هادئة، نشيطة كأيّ سيدة مصرية تقطن الريف وإنْ علا مقامُ عائلتها، فهو يبدو فقط من عدد الخدم بالبيت ومساحته ومحتوى غرفِ الخزين، ولكنه النشاط السمة السّائدة، وها هو خالها الحبيب، بعينيه الزرقاوين، ولونه الأبيض الهادئ، وشعره الذي يلمع ذهبيًّا في ضوء الشمس، هي لم ترَ الملائكة من قبل، ولكنّه وقرَ في يقينها كطفلة أن هذا هو ملاك، ابتسامته هادئة، يملك من السّلام النفسي ما يجعله كلّ صباح يستيقظ أول الموجودين، ويقضي مرّات ذهابًا وجيئة يملأ الماءَ من طرمبة يدوية خارجَ المنزل، كم كانت متعتُها وهي تتقافز حوله مُعتقدةً أنها تُساعده، وحقيقة الأمر كانت تُعيقه، وأحيانًا تؤدّي إلى انسكاب الماء، ولا شيء سوى ابتسامة منْه، ويحملها على كتفيه كي يأمن طفولتها، ويحمل بكلّ يدٍ دلوًا مليئًا بالماء العذب، ويودِعُه بكل أزيار البيت، ويرتّب كلّ شيء، يستيقظ الجميع واحدٌ تلو الآخر يستقبلهم واليومَ بابتسامةِ ودّ وسلام، ثمّ يصعد إلى سطح الحوش؛ وهو عبارة عن

بنيات حمام، كان يقضي معظم وقته مع الحمام، ولم لا! فهوَ ملاك بلا أجنحة، وكم تخيّلته يومًا ما ستنبت له أجنحة مثلَ أجنحة الحمام، ويطير إلى الجنة؛ مكانه الطبيعي، فأمثاله لا تستحقّهم الأرض، دائمًا ما كانت تستمتع بملاحظته، مجرد وجودِه سعادة، فهي لم تعهدْ هذا النوعِ من الملائكة.

وسَرْعان ما ينتشلُها صوتُ الأطفال أقاربها، الجميل في الريف أنّ الأقارب ليس لهم درجات، ولا توصيف، ولا تحديد؛ فهذا أخوك، وهذه أختك، الكلّ هكذا، وما أجمل هذا من إحساس.

يناديها "ميدو" بصوتٍ تشوبه أهمية: منى، منى، تعالي بسرعة.

وتستجيب على الفوْر: فيه إيه؟!.

وينجلي هنا مصدرُ أهمية الموقف، فيقول "ميدو": هنشوي دُرة.

منى تَخرج مُندفعة لتجد "ميدو" قد سبقَها جريًا، ومن ورائها مُهاب وإيمان، إنّهم الأربعة إخوة عندَ ذهابها للقرية، فلسبب ما اعتادت الرقمَ أربعة في مسألة الإخوة، فهؤلاء هم إخوتها في البلدة الريفية الصغيرة؛

جنّتُها في الأرض، يجري الأربعة مُتّجهين إلى حقول الذّرة التي كانت في عيدانها أكثرَ طولًا من طفولتهم، مَرحين يتبارون في انْتشال أكواز الذّرة من عيدانها، ويتّجهون نحوَ كوخِ حارس الأرض الذي يقع على طرف الحقل، كوخ تفنّن في صنعه من الأخشاب والقشّ وقطع الملابس القديمة، يقيم به لحراسةِ الأرض.

مُهاب حاملًا بضعة شقفات من الحجارة: ميدو، دوّر على صاجة.

ويتابع "ميدو" إتمامَ الإمدادات بأهمية شديدة موجّهًا كلامه إلى "إيمان": جبتِ الكبريت؟!.

التي تُخرجه من جيبها الصّغير في ترقّب، وطاعة لطيفة فهي جميلة هادئة.

وتقوم "منى" بتكوين الأحجار في صفّين متباعدين، ووضع الصّاجة فوقهم، وتوجّه كلامها إلى "مُهاب": هاتوا قش. وأنتَ يا "ميدو" ولّع النار على ما القشّ ييجي. ولا تنسَ أن تجعل لإيمان دورًا تقوم بتقشير أكواز الذّرة ووضعها فوق النار. إيمان، تعالي هوّي على النار.

رقيقة مطيعة كعادتها تجيب "إيمان": حاضر <

وتحرّك يدَها الصّغيرة بسرعة لتزيد النار، وتقترب تنفخ فيها، يأتي مُهاب وميدو مُحمّلين ببعض القشّ ويضيفونه إلى النار، وتأتي نسمة شتاءٍ ماجنة تأخذ بعضَ الشّرر وتُضرم النار في كوخِ الحارس، تتعالى صرخاتُ الأطفال وينتشرون بسرعة جريًا، خوفًا ورهبة وصرخات وضحكات، خليط طفولي ينعش كلّ الحواس، وكلّما ابتعدوا نظروا للخلف ليجدوا الدخان الكثيفَ من مكوّنات الكوخ التي بلّلها المطر سابقًا، ويهرعون إلى داخل الشّوارعِ الضيقة جدًّا كحال شوارعِ معظم الريف المصري، حاملين سرًّا آخرَ من أسرارهم الخاصة، التي تجيش بها طفولتهم الأربعة معًا، وما أكثرها، وما أحلاها، تنفرج شوارعُ الذاكرة الريفية الضيقة عن بيت خالتها الحبيبة، وبمعنى أدقّ حديقة البيت، كانت صغيرة نوعًا ما، ولكنها على شاطئ ترعة تموجُ بالإوز المُرْعب لها في سنّها الصغيرة، تذكرُ كم طاردها الإوزّ كأنّه "التنين المجنح"، كانت تصرخ في رعبٍ يغري الإوزةَ فتتقدّم نحوها ممسكة بطرفِ ملابسها، قمة الرّعب كان هذا الوحش الأبيض، يا لها من رائعة براءة الطّفولة، كم كانت الحديقة مُتناسقة، يشقّ أرضها خطوط طوليّة وعرضية، كأخاديد عطشى نُحتت في انتظار الارتواء، وعندَ موسم فيضان النيل ترتوي الترعة ويعلو منسوب الماء، فيغمرُ مجاري الحديقة محمّلًا بأسماك صغيرة عجيبة، إنه موسمُ الصيد للإخوة الأربعة، سرّ آخر، فيأتي

"ميدو" بغربال مِن منزله، وتأتي "إيمان" بمصفاة، ويقوم الجميع بغمر الآنية في الماء وإخراجِها مُسربين المياه، ويجمع مُهاب الأسماك في وعاء، ومرّة أُخرى يحلو الشّواءُ الطفولي الساحر، أسرار، أسرار، أسرار.

إنّها السعادة الدائمة، ولكن أين الأحباب؟! أين ذهب الإخوة الآن؟!، تذكرُ مدخلَ بيت خالتها الخلفي حيث الدخول مباشرة على السّلم المؤدي إلى السطح، سلّم من الطوب النيّئ، كم كان متّسعًا ونظيفًا دائمًا، وكان يحوي في أسفله فرنًا بلديًّا، ممّا يحول المدخلَ في لحظات إلى حجرة خبز وطهي، وعند الانتهاء فهو كمدينةِ ملاهٍ لهم جميعًا، لكلّ الأطفال، كم سهروا في ليل الريف الطويل الذي يبدأ مباشرة بعد أذان العشاء، على هذه السلالم، تقصّ لهم أُختها الكبرى قصصًا جميلة مثلها، تجمعُ كلّ أطفال العائلة فهي أكبرهم جميعًا، وكانوا ينساقون لها إلّا إخوة الريف الأربعة، فينتحونَ جانبًا ويتفننون في عمل أسرارٍ تلوَ أسرار، كم مرّت أيام بطولها على السلم يلعبون بالكروت "الكوتشينة"، يخطّطون للسرّ القادم، كم غادروا مُسرعين لتسلّق شجرة التوت على قارعة النيل، يتسلقها الأولادُ وتبقى منى وإيمان يلتقطان ما يقع من التوت المتفرد المَذاق، كم أحبّته! وكم تمّ عقابُها لأنّ التوت ترك بقعًا على ملابسها، فهي تأبى إلّا أن تحتضنه، فهي تُحبه، ويمر بكيانها طعمُ فاكهة غير

ناضجة، يدغدغ ذاكرتها في سعادة، فهم فقط الأربعة يحبّونها، إنه بستان الجوافة في أرض "عمو إسماعيل"، خالها بالتّقريب، وكبير أعيان المنطقه، لا تهمّها الألقاب، ولا المقامات، هي فقط تعرف قيمةَ هذا البستان، كثيرًا ما تباروا في إسقاط الجوافة من على أشجارها الطويلة بالنّسبة لهم، كانوا يقذفونها بالحجارة، ولا تدري لمَ دائمًا كانوا يجدون الجوافة غيرَ ناضجة؟!، ربما هذا هو حالها في توقيتِ ذهاب منى إلى بلدة والدتِها دائمًا؟!، الله أعلم، فقط هي تُحبّها هكذا، فلقد اعتادوا التباري مَن يلتقط فاكهة أكثر، ويأكل ما التقطَه ليثبت أنّه حصل على الأجود لمهارته، يا إلهي! كم كانت مرارتها، ولكنّ حلاوة التباري والفوز كان تضيع كلّ مرارة طعم.

وتأبى "منى" الهزيمة، عنيدة هي في كلّ التفاصيل، فحتى اللّحظة لم تأخذ قرارًا، مَن يكُ يتخيّل أن يصل بها العناد إلى الوقوف على حافّة الموت؟!، وفي إصرارٍ غريب على تحقيق العدل، برغم تمام معرفتها أنّها تُريد الرحيل، وإلّا لمَ أتت لمنزلها القديم، ولمَ جالت بين كلّ الذكرى؛ حلوها ومرّها، كم تفاجأت بكمّ السعادة التي مرّت بها ولا تدري لماذا اختفى فجأة من ذاكرتها كلّ هذا الجمال؟!، كلّ هذه السعادة؟!، ماذا حدث لكلّ هؤلاء؟!، ولمَ الآن لا تجدُ حولها أحدًا منهم؟!، لم فقط لا

يمسك يدها سوى "عمر"؟!، هل حقًّا هو لمسة الدفء الوحيدة المتبقّية من كلّ عالمها؟!، هل أتى اليوم ليكون "عمر" هو أيضًا كعادته الوحيد المتمسّك بوجودها؟!.

أين أنتم إخوتي؟!، أحبّتي؟!، لم نحكِ بعد كلّ أسرارنا، كم أحتاجُ وجودكم الآن، أعلمُ كم أُحبّكم، ولكنكم على ما أعتقد لا تعلمون، ماذا فعلتْ بكم الحياة لتتركوني الآن؟، لم أعُد أراكم في الذاكرة.

ضغطةُ يدٍ من "عمر" زادت تشوش عقلها، هي لا تريد ضغوطًا أكثرَ ممّا هي فيه، هي تريد تصفية ذهنها، إن القرار حقًّا مُرهق، لا مفرّ من إراقة آخر سرّ لها في رحلتها الريفية، سرّ لا يعلمه حتّى إخوتها، مخبأها السّري، إنها صفصافة متهدّلة الأغصان، تلقي بأغصانها على صفحة الماء، هناك على شاطئ الترعة، بجوار مصلّى صغير، كانت تتسلل خلف الأغصان، تدوس بحذرٍ على حافّة الأرض الطينية على الشّاطئ لتختفي ما بين ساق الشجرة وأغصانها الساترة، إنه مخبأ طبيعي عجيب، كأنّ الله صنعه خصيصًا لها، فكلما احتاجت التخفّي سواء للّعب أو.. أو لماذا؟!، لا تدري، فلماذا تحتاج طفلة للتأمّل والوحدة؟!، حتمًا كان الله يخلق لها ما تحتاجه، وما سوف تحتاجه، إنّها الآن أحوج ما يكون لصفاء ذهنها،

ستذهب إلى مقعدها خلفَ أغصان الصفصافة، تُنصت لصوتِ الماء، وزقزقة العصافير، وحتى صوت الشمس حين الرّحيل، كم استأنستِ الآن بمفردات أكملتها، فحين الرحيل يكونُ للصمت صوتٌ متفرّد، مزيج من تراتيل وابتهالات، صوتُ انحناءة رأس في جلالٍ للخالق، صوت صفحات العمر وهي تنقلب في استسلام، لا تدري في أيّ اتّجاه سيكون الحال، وحينَ الرحيل، نعلم أنّه مهما كانت نغمة الصوت فعلينا التهذّب، فحضرةُ القدر أجلُّ من أن تُعترض، تُدرك تمامًا أنها طالما مازالت تفكّر وتعتقد أنّ بيدها القرار فإنّ حضرة القدر لم تأتِ بعد، فهل لم يأتِ موعدُ الرحيل أيضًا؟!، هل مازال القرار لها؟! مَن يعلم.

سنرى..

١٣ ثانية

قد لا تسعفنا الذاكرة في كثيرٍ من الأحيان، ويستعصي علينا أن نتذكّر أشياء نريد تذكرها، ننزعج وقد نلعن التقدم في السن أو ضعف الذاكرة، أو.. أو.. أو... إلخ.

لكنْ هل توقّفنا لحظة أمام سؤال.. ماذا لو لم ننسى؟!، كيف الحال لو تذكرنا كلّ شيء طول الوقت؟! إنها الصاعقة، الطامة الكبرى ومنتهى الألم، لم نسأل أنفسنا يومًا أين ذهبت كلّ أحزاننا أو معظمها على الأقل؟!.

كيف عُدنا للحياة بعدَ موت القلب مرة بعد مرة، وابتسمنا بعدما حفرَ الألم ملامح أُخرى لوجوهنا؟!، كيف وسِعتنا الدنيا بعيوبنا وأخطائنا وخطايانا؟.

أحيانًا حين نتذكر نبكي، نتألم وكأنّنا نحيا الحدث مرة أُخرى، ونتذكّر مدى الألم والخذلان والطعنات، كيف تحملنا؟!..

الحقيقة أننا نحنُ لم نتحمل، نحن ببساطة ننسى، يُسقِط وجداننا قمةَ الألم من عقولنا كي نحيا، وإن أسقط معها أحيانًا ما تعلّمنا من قسوة التجربة، وإن أسقط معها بعضًا من أحلى الذكريات، أو أحسسنا بمضيّ العمر، ولكنْ لا يجب أن ننسى فضلَ النّسيان، وأن ننحني احترامًا لفضله علينا، فلولاه ما كنّا وما استمرّينا، وما اشتقنا للحظاتِ تأمّل نعود فيها إلى حيث منشأ العمر، ومسار وجداننا وفرحة التذكر.

إنّ "منى" الآن أحوجُ ما تكون للتذكّر، ليس هذا وقت النسيان، فهي تحتاج كلّ تفصيلة لتأخذ قرارًا عادلًا، فلقد بدأ الأمرُ يلتبس تمامًا عليها، "ماما" مرة أخرى يرجُ شغافها هذا النّداء، تتجه إلى مصدر الصوت، هالة من النور تتجه نحوها تكاد تمتزج بها، كلما اقتربت يزداد إحساسها أنها تكتمل، إنها فتاةٌ نورانية تشبهها كثيرًا، ليس شكلًا ولكنها هي روحها تتجلّى أمامها، هل صعدت روحها وتنظر إليها الآن كما سمعت كثيرًا من قصص العائدين من الموت؟! لا.. لا، إنّه حدث آخر.

وتناديها مرّة أخرى: ماما.

وتردّ "منى" في انبهار: أيوه يا"نور". يا إلهي! إنها نور وهي نور، ماذا فعلتْ منى من حسنات بحياتها لتسمع مثل هذه الكلمة الجيّاشة من رائعةٍ مثل نور؟!.

تستطردُ "نور" في عنفوانِ شاب: آخر كلام قلتِ إيه؟! نحجز الأقصر وأسوان واللّا فاكس؟!.

تهزّ "منى"رأسَها مُعترضة: فاكس إيه بسّ؟!، نفسي أفهم بتجيبوا الكلام ده منين؟!، المفروض تنزلوا بالترجمة.

وفي قلّة صبر شابَه إيقاعُ حياتها السرعة: يا ماما، فاكس يعني تقاطعها "منى" بسرعة كمن يريد إثبات أنه مازال يتخذ موضعه من التطور: عارفة، فاكس يعني مش مهم، ولا مالوش لازمة، لا.. ما تقليقش أمك معاصرة، وجدًّا كمان.

نور ضاحكةً بابتسامتها المميّزة التي تشعّ نورًا لا محدود: ماشي يا عمّ الماما، قرّرتِ إيه؟!.

وتُعلن قرارها: تمام، نحجز لنا كلنا. بسّ خلّي بالك طبعًا نايل كروز، عاوزه أقصى فسحة ممكنة.

وتندهش نور، وتوجّه كلامها إلى أمّها محذّرة: ماما، هتبقى بهدلة، أنا رُحت السّنة اللّي فاتت بطولي مع أصحابي تعبنا، تخيّلي لو كلنّا رحنا.

وتبحث "منى" عنْ عنصر أمان: معلش بابا هيكون معانا، نفسي نطلع رحلة كلّنا سوا، وبعدين دي جوّه مصر، سهلة يعني.

وترفع نور كتفيْها في حركةٍ ورثتها تمامًا من أمها: ماشي أنت حرّة، بسّ أنا عارفة إنّ نفسك تطلعيها، وعاوزه تستمتعي بيها.

تُردّد " منى" في تلقائية: متعتي بيكم يا قلبي.

نور مُتطلّعة في خبثٍ إلى أمّها: من قلبك؟!.

في ابتسامةٍ هادئة، وبصوتِ أمّ عميق: عمرك ما تحسّي مهما قلت لك يا نور.

مُقبّلة جبينَها في إجلال وشكرٍ لله على نعمِه التي تكتشفها "منى" واحدة تلوَ الأخرى، فأين كانت هي مِن نعم الله.

تفيقُ على أصوات مارّة كثر، وضجيج ونفير قطارات كثيرة مِن كلّ صوْبٍ وحَدب، يقطعون المحطة والقضبان ذهابًا وإيابًا، ياااه! أخيرًا، إنّها في محطة مصر، كثيرًا ما حلمت أن تقوم برحلةٍ من خلالها، فلطالما داعبَ خيال جيلها مشاهد فرقة رضا في فيلم "إجازة مُنتصف العام"، ورقصتهم وفرحتهم في محطّة مصر، ولكنّ الوجوه التي تراها مكفهرّة، بائسة، اللون الرّمادي هو أنصعُ الألوان المحيطة، أوراق وبقايا ملقاة في كلّ الأنحاء إلّا في سلّة المهملات، وعند المدخل يقف مندوب شرطةٍ أصيل يذكّرها بالشاويش "فرقع" في قصص "المغامرون الخمسة"، لكنّه يختلف غالبًا باختلاف العصر، فهوَ سمين بلا نضْرة، مترهّل في سماجة لا تُنكرها العين، وإن كانَ لا يتطاول، أو لم يحدث ما يستدعي! اللهُ أعلم، وبعده بخطواتٍ أُخرى مندوب شُرَطي آخر، ابتسمت في تعجّب، إنه الشّاويش "فرقع" بعينه بجوار بوابة إلكترونية لاكتشاف المَعادن، هزّت رأسها في تعجّب ساخر متسائلة: متى سيكون لشعبِنا سمتٌ مميز؟!، تعبيرٌ واحد أو متشابه لحالة واحدة.

إنّ ما يميّزنا أنّ كلّ فرد من شعبنا هو حضارة بحاله، قصة شعبٍ متكاملة بمفرده، فهو مَلِك في نفسه، ولكن أسير قوت يومِه، حرّ في منطقته، تابع خارجها، متديّن بطبعه، عاهر في أحدِ مفرداته، ناقم على كلّ شيء؛ فهُم– الآخرون– أغبياء، ساخرٌ من كلّ شيء حتّى من غبائه، رجل مُكتمل الرجولة والجدعنة إذا ما استنجدَ به أحد، و... ابتسمت منى فلن تُكمل الجملةَ وأخفتْ وجهها في زجاج نافذة القطار، ثمّ اتّسعت ابتسامتها؛ فلقد أدركت كمْ أصبح من الممكن أن تتلفظ بألفاظ استحتْ لوهلةٍ أن تنطقها.

غير مهمّ، فلقد انطلقت رحلتها التي طالما تمنّتها طول عمرها، فلقدْ حان اللقاء، فلا أحد يعلم، ولن يعلم أحدٌ أنها في طريقها لاستكشاف أصلها، منشأ روحها، أو على الأقل لتحلّ شفرة "حورس" في كلّ تفاصيلها، رحلة طويلة ترى تململ الرّكاب، وصراخ الأطفال، والكمساري أصبح صديق الركاب من كثرةِ وطولِ وقت الرّحلة، مُريحٌ هو القطار، ولكن يستغرق وقتًا أطول، لم تكن تتوقّع أن يقتلها الشوق والفضول لهذه الدّرجة، ولكنها أرادت أنْ تقطع مصر وتشقّ طريقها على الأرض، فهي ابنة هذه الأرض تحديدًا، ولكن لا تدرك من أيّ نقطة. وتُضاء الأنوارُ العالية معلنة اقتراب نهاية الرحلة،

وتفيق على انفعال ابنتها: ماما، الأفندي اللّي المفروض يقابلنا اتّصلنا به ألف مرّة مفيش تنسيق.

لا.. لا، فهي لا تُريد أيّ تشتيت عن مهمّتها: اهدي يا نور، دي رحلة، خلّينا نريّح أعصابنا.

وتزداد عصبية "نور" من هدوء أمّها: نريّح إيه؟ ده أنا مش هاسكت.

وفي شبه توسّل للهدوء تطمئنُ ابنتها: نور، اهدي، مش هنغْلَب، هنتصرّف.

فهي لا تريد أيّ توتر أو عرقلة عن هدفها.

جمعتْ "نور" كلّ أفراد الرحلة، أو من استطاعت إليهم سبيلًا: يا جماعة، ده تهريج، الشركة أعطتنا أرقام ناس مش ملتزمة. همهمات وأصوات بدأتْ في التعالي، تنسحب "منى" من المشهد، فلقد بدأتْ رحلتها الداخلية الخاصّة بها، تسمو بروحها عن مشهد المشادّة مع المندوب السياحي، وضياع اليوم في التّسكين بالعبارة، والخطط البديلة التي وضعها

أعضاءُ الرحلة، فمنهم مَن ترك العبارة وذهب سريعًا إلى حديقة النباتات، ومنهم مَن اتّجه ليقضي ليلة نوبية.

وتكاد "نور" تُجن: ماما، هنفضل قاعدين كده؟! ده هو يوم واحد في أسوان!

"منى" وقد أعياها التوتّر: نور، أنتِ الّي جيتِ قبل كده، وتعرفي، لكن أنا أوّل مرة.

وكالعادة تتّخذ نور موقعَ الأم: هنتحرك إحْنا كلّنا ازّاي؟ سيبي إخواتي مش هيلفت نظرهم النباتات يعني، وتعالي نروح خطف لجزيرة النباتات.

: مش هقْدَر أسيبهم، روحي انتِ وأختك.

وهنا تنفعل "نور"، فهي دائمًا مُحقّة ولكنها بعد ليست أُم: أنا قلت لك مش هتعرفي تتحرّكي لو جينا كلّنا مش بتسمعي الكلام يا ماما، الرحلة دي عشانك أنت، همّا ممكن يطلعوا في أي وقت.

ارتبكت "منى"، وحاولت أن تجدَ مخرجًا: معلش، وبعدين ما هو بابا كان ها ييجي معانا.

تنظر"نور" في ثورةٍ لأمّها: ما أنتِ عارفة بابا، لا كان هايطلع، ولوْ طلع معانا مش هيبهدل نفسه.

بصوتٍ غير صادق تمامًا: ما هو جاله سفر فجأة يا بنتي، أنتِ اهدي على نفسك.

متمتمةً في غضب تتفهّمه "منى" تمامًا، ولكنها لا تستطيع البوحَ به، ولكن "نور" تعي تمامًا، وبدرجة وعيها تبنّت أمها، إنّها المسئولة الأولى عن تحقيق السّعادة لمنى.

ويقطع الحوار وصولُ المرشد والتجهيز لرحلة معبد فيلة عبر النيل، وجولة بأسوان، انفراجة محمودة، حقًّا إنه من الجنة هذا النهر، فبمجرّد أن تكون على سطحه تتملّكك الكثير من الرّوحانيات، بل والأساطير، وما فوق الخيال والطبيعة، إن مياهَه مزاجُها مُختلف، قطرات من حضارة لا مسبوقة ولا ملحوقة، إكسيرُ حياة لامغالاة، فصدقًا مقولة "مَن شرب من هذا النهر لا بدّ أن يعود"؛ لأنّه قد التقم التعويذة لا محالة.

تتلاقى نظراتُ "منى" معَ صفحة النيل في إشراقة فجر اليوم الأول، وهم متّجهون الآن صوبَ أوّل مراحل الهدف، "كوم أمبو"، حيث معبد

"حورس وسوبك" أوّل خطوة، تخطو بداخل المعبد، تعرفه تمامًا، لا شيء غريب، تبحث في لهفة عن حورسها، ويطرُق آذانها صوتُ المرشد: هنا معبد الآلهة "سوبيك وحورس"، بُني في عهد البطالمة، وهنا تحديدًا نحن نقفُ في بهو المستشفى.

انفلتت صرخة مدوّية من فم "منى" لفتتِ الأنظار: مستشفى!؟

ابتسمَ المرشد لدهشتها: نعم، إنّه أكبر مستشفى في وقته، وانظروا إلى هذه الجدارية، إنّها طاولة آلات جراحية، انظروا إلى الآلات، تكاد تطابق الآلات المستخدمَة حاليًا.

منى بصوتٍ أكثرَ دهشة: مستحيل، مستحيل.

مُقتربة من الجدارية مزاحمة للجمْع، تجول بنظراتها في كلّ التّفاصيل، حقًّا إنّها طاولة عمليات، إذًا لم تكن مصادفة أن تلتحقَ بكلية الطب، إنّه القدر الحتمي لاستعادة مكانتها بين الأزمنة، إنّها رسالة "حورس" لاستعادتها؛ هكذا ومضَ بخاطرها.

ويقول المرشد مشيرًا إلى جوارها: وعلى يميننا هنا ممرّ أو كوريدور المستشفى المؤدّي إلى غرف الكشف، سنذهب إليه بعدَ قليل، أمّا على اليسار فهي غرفة الولادة الخاصة.. كثيرٌ هذا على الاستيعاب.

انسابتْ روحٌ بداخلها، هي روحها ولكنْ مختلفة النسمات، سارتْ مسرعة في بهو المستشفى وطرقاتها، تحررت من صورتِها الحالية، عاد الزمن آلافَ السنين مع خُطاها، ترتدي زيًّا فرعونيًّا أبيضَ اللون، تتطاير ثنايا زيّها وخصلات شعرها من شدّة سرعتها، فيروزات تتلألأ على صدرها وتُزين تاجها البسيط جدًّا، صفّ واحدٌ من الفيروز، تاج امراة عاملة فرعونية تأبى إلّا التألق.

الفيروز؟!، حجرُها المفضل، تجوب المشفى وتمدّ يدها إلى طاولة الآلات الجراحية، كلّ شيء في اعتيادٍ، في حياتية عادية، إنّها "هى"، إنها هنا، تُحدث أطقم العمل، تبتسم للمرضى بابتسامتها المميزة، راحةٌ لانهائية بدأت تسري في أوصالها، راحة السّكينة إلى الوطن، كأنها تعود إلى أدراجها، تستقرّ كلّ ذرات روحها تباعًا في أماكنها ألأصلية، لم تعد تُلقي بالًا بأحداث الرحلة ومشاكلها، فلقد بدأت تنفصلُ عن هذا الواقع، وتنتقل عبرَ النبضات الزمنية الكونية الكهربية إلى زمنٍ يتجسّد في كلّ

لحظة بداخلها من قبل، ولم تكن تدري كنهَه، إنّه وقت المعرفة قد حان فيما يبدو. ولملمت ثنايا زيها الفرعوني تُخْفيه، وتحتجبُ عن العيون في رحلة الوصول إلى معبد إدفو، معبد "حورس" الخالص، وصلت العبّارة متأخّرة عنْ موعدها وقد بدأ الليل.

وارتفع صوتُ المرشد يعلن: نعتذر يا جماعة عن التأخير.

وانبرتْ مدام كريستين في غضبٍ قائلة: ده تهريج، أنتم ضيّعتم يوم أسوان كلّه ماعملناش حاجة.

يقاطعها أستاذ باقْلي: إحنا مش هانسكت، ده كمان معبد إدفو ما شفناه، ده كلام فارغ.

ويُكرر المرشد اعتذارَه: إحنا آسفين، نعوّضها في الأقصر.

همهماتٌ بين أعضاء الرحلة تعلو: أُقصر إيه؟!، هنعمل إيه إحنا في الليلة دي؟!، يعني كده الرحلة ضاعت!.

ويحاول المرشدُ التحكمَ بالوضع فيعلن حلًّا بديلًا: يا جماعة، اهدوا بسّ إحنا آسفين، وتعويضًا لكم إحنا حجزنا الصوت والضّوء على حسابنا للرحلة.

ويأتي صوت مدام كريستين معلنًا في أسى: صوت وضوء؟!، ده بدأ من نصّ ساعة على ما نروح يكون خلص.

خلص!. لم تدرِ "منى" بنفسها كيف سابقت الجميع، وعند مدخلِ الصوت والضوء لم تهتمّ بما قد يُقال، فلقد تخطت الجميعَ مُسرعة، بلهفة الحياة، "حورس"، صورته بالإضاءة تمتدّ بجسارة على كلّ مساحة جدار المعبد، التقاها بنظرته، عينان تحملان سماتِ عيونها، التفتت إليها تاركًا كلّ ما يحدث بالجوار، سِحرٌ أسَرَها، سارت، تخطّت كلّ الكراسي المتراصة، ذهبت إلى حيث لا يوجد أحد، الكل خلفها، شاخصة عينها إلى "حورس"، توسّدت الأرض في إجلال عاشقٍ متبتّل، تابعها بنظرتِه حتى اطمأنّ على استقرارها، وتابع ما كان يفعله، تحرّك مع الضوء، يقطع الصمتَ صوتُ سهير المرشدى: حت حور.. "سيدة الفيروز " وهي إلهة السماء والجمال والأمومة والسّعادة والخصوبة. وأصبح "حورس" يحتاج إلى رفيقةٍ، وتمّ زواجه من "حتحور" وحين نقلَها عبر نهر النيل إلى

مستقرّها مع زوجها "حورس"، كان في استقبالها بالأهازيج والموسيقى، وبدأت تدقّ موسيقى استقبال "حتحور"، وصورتها تملأ جدرانَ المعبد، انطلقت روحها من الألم ترقص كالذّبيح على أنغام الأهازيج، وأخذت تدقّ الأرض بقدمها ذي الخلخال الفيروزي الرّقيق، تلتفّ حول نفسها سَكرى من الألم، فكيف يجرؤ على خيانتها، كيف يقتلها في لحظةِ اللقاء؟! وترقرقت الدموعُ بعينها، هل حقًّا سيعودا معًا؟! هل من المُمكن أن يخذلها؟! أُسقط في يدها، فعندما تُطعَن الأنثى يعود كلّ شيء إلى صورته الأوّلية، من أول الخلية الواحدة، لا تستطيع أي شيء.. سوى الانهيار.

يأتيها في خضمّ رقصة آلامها صوتُ "حورس": يا (أنا).

تُجيب في حيرةٍ من خلال دموعها: مَن؟! (أنا)؟!.

عييتُ أنْ أعرف مَن أنا؟!، ومَن أنتَ لي، هل أنت أنا؟!

فلِمَ إذن تقتلني الغيرة الآن؟ كيف تكون لك رفيقة سواي؟!.

وبصوتٍ حنون يتلقف حيرتها "حورس": إننا هنا واحد، ودائمًا واحد، إن روحك تحييني، وأُكحّل عينك بعيني، وأُريك ما أرى. وينظر لها هنا بنظرة مَن باح بسرّ مَكين.

وتفغر "منى" فاها في دهشة المستحيل: كيف هذا؟!، لا تقلْ إنّك أنت من تفعل؟!.

يُرسل لها "حورس" فيضًا من سحر عينيه ليؤكد لها: نعم إنه أنا، أنا عينُ الإله الحارسة، عين اليقين التي ترين بها كلّ ما لا يدركه البشر، أنا مَن لم يتركك منذ التقت الروح، إنها قصتنا منذُ آلاف السنين.

وتهذي غير مُصدّقة: أنت سبب كلّ ما أرى إذًا! لم؟!

ويجيبها مُحاولًا إيصال ما كان يبغيه: إنها كانت وسيلتي لأخبرك أنّني هنا، أنني بداخلك وحولك، إنّها طريقتي لأحمي روحَنا التي تسري بجسدك، وبكلّ جسد عبرت به لأصل إليك.

منى تهزمُها دموعُ اليقين، فلقد استراح جزء منها ليس باليسير، ففي كلّ تفاصيل حياتها ترى "عين حورس"، حتى أضحتْ جزءًا من ملامحها،

تشعر به في كلّ موقف أو كلما احتاجت إلى دليلٍ أو علامة إرشادٍ في الحياة، وكانت لا تدري كيف أصبح أيقونتها.

منى مُغالبةً دموعَها: لقد انتهى الوقت، انتهى الصوت والضّوء، أيُعقل أن يكون هذا نهاية مطافنا؟!.

ربّت "حورس" على روحها ليطمئنَها: لا تبتئسي أيّتها الأنا، سأراك أقربَ ممّا تظنين.

رفعتْ عينيها تتأمّل سحره وهي تقول: أضحى كلامك هو يقيني، والروح معك هي أنا، فلك الأنا تصغي، تؤمن، تستكين.

انفضّ الجمع، وعادوا إلى العبّارة ومازالت منى لا تستوعب كيفَ تسير الأحداث، كيف ستعود، لقد بدأت تحسّ بانتزاع الرّوح ولا تدرك، أهو انتزاعُ الروح في سكرات الموت، أم انتزاع "حورس" مِن حناياها حين أزفَ الرحيل، وما عاد يهمّها في أيّ زمن هي؟ سؤال يهمّ، الأهمّ كيف ستلتقيه ثانية؟!.

سرحتْ في إجابة هذا السؤال وهي تمضغ طعام العشاء وقد بدأتِ العبّارة في رحلة الذهاب إلى الأقصر، دقائق تمرّ، ومع كلّ دقيقة يتسلل الشكّ إلى خاطرها، أكان ما حدث حقًّا خيالًا؟!، لا.. لا يمكن، إنّه واقع حدث، وسيَفي بوعده، فقط هي نسبية الزمان، تُرى هل سيطول الوقت عمرًا آخر؟!.

أفاقت من تساؤلاتها على صوت ارتطام رهيب بالعبارة ظنّه الجميعُ انْفجارًا في المحركات، صراخٌ وهلعٌ من الجميع، وجروا مُسرعين في هَرج ومَرَج، فلقد تعرّضت العبّارة لحادث ارتطامٍ بمحطّة مياه إدفو، وسيضطرّون للمبيت بها، استنكارٌ كالعادة وتذمّر وشكوى، إلّا هي.. ابتسمت في ثقة تامة، فها هوَ "حورس" يقترب منها مُبتسمًا: لن ترحلي، سأراك ثانية في الصّباح، في انتظارك مليكتي.

في الصباح الباكر، سارت بنفس الطريق، إنّها الروعة الحقيقة تتجلّى دائمًا مع شمس مصر على ضفاف نيلها، حيث يقف "حورس" في شموخٍ في تمثال ضخم في مدخل المعبد، احتضنته في شوق: لا تتركني.

احتواها بين جناحيه، وهمس في أُذنها: لم، ولن يحدث.

استكانت على صدره: أُريد أن أبقى هنا.

ولكنّه أجابها في صوتٍ حزين: لقد مررت من هنا بالفعل، والرّوح لا تعود للخلف أبدًا.

صرختْ في استنكار: لا، أنا لى استثناء، فأنت إلهٌ فرعوني، ونحن نملك قوّة العين، قوة اليقين.

فأجابها "حورس": وهل تستطيعينَ أن تُفرقي بيننا؟ مَن أنا؟ هل أنا أنت، أم نحن؟!.

آلافُ الأعوام مرّت دون أن أستطيع الإجابة على هذا السّؤال، فكيف أكون إلهًا أو حتى نصفَ إله وأنا بدونك ناقص، وأنا بك أكتمل؟!.

وجدتْها "منى" فرصة لتعلنَ رغبتها: فلنكتمل إذًا رغمًا عن كلّ شيء، أنا الآن على حافّة الحياة، لا تتركني أتخبّط هكذا، فأيًّا ما كان، فنحن ننتمي لبعضنا بصورة أو بأُخرى.

ويبتسم في هدوء وتؤدة: كمْ دار بيننا هذا الحوار في عوالم سابقة، لقد مسّني الجنون، إنّه الجسد اللعين الذي تولدين فيه، إنّه ما يقيد كلّ

قدراتي، أنتظر يومَ تحرّرك إليّ، يوم بعثك في جسدِ صقر لنعبرَ الآفاق، لنتوّج ملكًا إلهًا.

منى: اخلقني.....

حورس: العجز يقتلني، لقد خُلقتِ مرّات ومرات، ليس منها مرّة واحدة عُدتِ إليّ فيها.

تصرخُ فيه بعنف: اخلقني...

: ما أنا بخالقٍ.

يقولها بعنفٍ، يقولها بعجزٍ، وتجتاحه عبرات القرون التي مضتْ في يأسٍ.

وتحاول بتوسّل: أسألك بحقّ روحينا علينا لا تتركني.

"حورس" وقد بدأ في فرْد أجنحته، ليحيطها بهم، ليخفيها حتّى عن أشعة الشمس التي بدأت في السطوع، إنه الفجر نفسه، فجرُ الحدث المشئوم: "منى"، هل تعلمين كم كنت قريبًا، كم كنت أتمنّى ألّا ترحلي من داخلي، إنّها لحظة الاكتمال الفعلي، لحظة فقدتها السنون.

وتجيبه وكأنّها لم تسمع شيئًا عن عجزه: إنّني الآن أموت، أريدك، أُريد العودةَ إليك، فقد تكون أنت حقًّا البداية التي يجب أنْ تكون.

ضمّها بجناحيه بأعنفِ ما تتحمّل ليطمئنها: أنا معك، ألا تريني؟!، لن أتركك حتّى تأخذي القرار الصحيح، تنتابني رجفة اليقين أنّه قد حان الوعد، قد اقترب لقاؤنا غاليتي.

وبدأ في شرعِ أجنحته لتظهرَ "منى" من خلالهما، مازالت مُلقاة على الأرض، يرفرف ليصلَ إلى أعلى منزل، في نفس مكانه بالزاوية، ولكن عيناهما مازالتا متعلقتيْن ببعض، مَدّ روحي يسري بلا انقطاع، وتحرّكت عيناها مع انطلاقته، ومازال شريانُ الروحِ يسري بينهما، هل حقًّا يستطيعان العودة معًا؟!.

وانسلّت دمعتاهما في نفس اللّحظة، فلقد بكيَا سويًّا، دمعة بالمناصفة، فمازالت روحُهما متشابكة، حركة عين لاحظها المُحيطون، شهقت "عبير" من البكاء، فهي تعرف معنى أن تدمعَ عينُ "منى" القوية، ورفعت يدَها تبتهل إلى الله أنْ هوّن عليها سكرات الموت، ونادت صارخةً في المسعفين: حرّكت عينها والله، أنا شفتها.

ويتبادل الجميعُ النظرات في صمت: ادْعوا لها.

حقًّا لا أحد يدري ما يحدث، كم نكون على هامش الحياة عندما نكون أحياء، أفيقوا أيّها السادة، فنحن حينما نكون أحياء كما نظنّ فإننا في غفلة عن ماهية الحياة الحقيقية، مهما طالتْ أعمارنا فلن تتخيلوا كمْ هو طول العمر حين نجابه الموت، كم مرّة تفكّرنا في قوله تعالى {فرفعنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد} صدق الله العظيم، نرى فقط عندما نظنّ أنّها النهاية، وحقيقة الأمر أنّها البداية، إنّها أيها السّادة "سكرات حياة" لوْ تعلمون، هل حقًّا يستطيعان العودة سويًّا؟! هل سيبدءان معًا؟! مَن يعلم!

....

١٢ ثانية

ثوانٍ تمرّ هي أثمنُ ما في العمر، بل هي العمرُ كله في لحظات، وإن فُقدَ شيء فبالتأكيد لسببٍ ما لا ندركه، ولكن يدركه اللهُ.. الله!، يا إلهي.. تذكّرت الآن، والآن فقط، فهي لم تنطقِ الشّهادتين، كيف ذلك؟! فهي تمامًا مدركة، ودائمًا ما كانت تُذَكّر نفسَها أنّه حين يأتي الأوان ستنطق بهما، وكم تضرّعت إلى الله أن يُنطِق لسانها بالشهادة حين تأتي ساعتها، دائمًا اعتادت أن تؤدّي ما عليها من واجبات، ولكنها الآن لا تعلم، هل هي علامةٌ من الله على أنّه لم يحنْ وقت الرحيل، أم هو غضبٌ من الله، فهي تعي أنها لا بدّ فاعلة، إذا فلم التّفكير؟! أهذه أيضًا تحتاج إلى قرار!؟ عنيدة هي فوق احتمالها الشخصي، فلتكن بجانب الله أضمن، وتعلم أنها تستحي النّطق بها، نعم.. تستحي؛ فكم أذنبت وتعلم، كم أذنبت ولا تعلم، تبًّا لمَن تركنا في خضمّ العيب حتى فوجئنا بكم ما هو حرام، ولم نعِ إلّا بعد حين.

وينسابُ بين ثنايا عقلها صوتُ عبير في رقتها المعهودة وهدوئها: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله.

وتميل برأسِها لتقترب من أذن "منى" مكرّرةً من بين دموعها...

لا إله إلّا الله، "منى" قوليها ورايا، لو سامعاني قولي.. ويتهدّج صوتُها بالبكاء، قولي حتّى لا إله إلّا الله بسّ، دي كفاية.

وتُحاول "منى" رفعَ صوتها من حيث مكانها في الوجود: نعم حبيبتي، أسمعك بوضوحٍ تام، حتى ليكاد صوتك يصمّ أذني، أسمعُك وأردّدها يا استجابة دعائي.

وتكرّر "عبير" في إصرار: "منى"، قولي.. قولي ورايا. مكرّرة الشهادة في عنفٍ وسرعة، خشية ألّا تكون "منى" مُدركة، بل أخذت تردّدها في هستيرية، حتى اختلطت الكلمات بالدّموعِ من خلف نقابها.

وبعميقِ الامتنان تجيبها "منى": ليتني أستطيع أن أُسمعك أنّني نطقتها، ليتَك تسمعين عميقَ امتناني، كم أودّ أن أمسح دموعَك التي تسلّلت حتى بلّلت نقابك إلى قلبك النقي.

وترفع "عبير" يدَها إلى السماء: يا ربّ هوّن عليها، ياارب ارحمْها بلطفك، فهي تستحق.

وتنفرج أساريرُ "منى": أحقًّا أستحق؟!، أتمنّى لو أنّني حقًّا أستحقّ الرحمة والمغفرة، ولكنها "عبير" بنقائها.

تتذكّر "منى" جيدًا بعدما تخرّجت "عبير" من كلية الحقوق بتقدير مرتفع، وترتيبٍ متقدّم، ممّا كان يتيح لها التعيين بالكلية، ولكنّها رفضت؛ فهي تعلم جيدًا أنه سيتمّ تعيينها فقط لأنّ ترتيبها يقع قبلَ ترتيب ابن أحد الأساتذة، ولهذا فقط كان سيتمّ طلب وظائف تشملها، في حين أنّ هناك مَن هو أجدر منها، وقد تمّ التعنّت معه ليصبح ترتيبه أقل، يعلم الجميع هذا، فزميلُهم كان الأجدر، وبرفضها التّعيين سيتمكّن هو مِن تقلّد منصبٍ جامعيّ يستحقّه، وتنازلت مُنى في دهشة: "عبير"، أنت بتهزّري؟ وظيفة ونازلة لك تبقى حقّك.

وباقتناعٍ حقيقيّ تُجيبها "عبير": حقّي ازّاي؟ كلّنا عارفين إنّ "بهاء" اتْظلم، هو أحقّ من الأفندي اللّي طلّعوه الأول علينا.

وتحاول "منى" شرحَ الواقع: يبقى مشكلتهم مع بعض.

وتُصرّ "عبير" على موقفِها: لأ طبعًا، أنا عارفة إنّ فيه ظلم وقع، وأقدر أرفعه أو أصحّحه، أمّال ازّاي إحنا حقوقيّين.

وفي سبيل إيجادِ مَخرج تقول "منى": يا ستّي يرفع قضية.

وتتمسّك "عبير" بموقفها: هايضطهدوه أكتر، وحتّى دراسات عُليا مش هاينولها.

ولا تجد "منى" بُدًّا، فتحاولُ الوصول إلى حلّ وسط: يا بنتي أنتِ صحّ والله، بسّ الظلم انتِ مش مسئولة عنه.

وفي حزمٍ تردّ "عبير": بسّ أقدر أرفعه.

ولأنّها تكره الظلم، وتخشاه حدَّ الرّعب، سلّمت راية الحوار: ربّنا يكرمك، وهايكرمك والله جدًّا، عرفتِ بحبك ليه؟!.

ويبتسمَا في حميميةٍ على قدْر عمرهما سويًّا، وهو كثير.

وتنازلتْ عن فرصةٍ يراها الجميعُ حلمًا، ولكنّه العدل حين يتمكّن من الأنفس ترتقي إلى مرتبة الملائكة.

ويتكرّر الحوار نفسُه مرّة أخرى، فلقد توصّلت "عبير" إلى كُنْه الحرام بنفسها، واستجابتْ له، ولكنْ عن طريق الارتداد إلى الذات، فليس هناك مَن يرشد جيلنا بأكمله، لقد خسرنا الكثيرَ حقًّا.

تهزّ مُنى رأسها قائله: تاني؟!. يا بنتي مش كده، أنتِ شغالة في مكتب أكتر محامي محترم في البلد، وبيتّقي ربنا، دي فرصتك بجد.

وتؤمّن "عبير" على كلامها: طبعًا والله عارفة إنّه محترم جدًّا، وكلّ شغله حلال، بسّ عشان الشغل يمشي لازم يا مُنى ندفع رشاوي في كلّ خطوة، بجدّ شيء مش ممكن تتخيّليه.

متفهّمة "منى" الوضعَ تمامًا: "عبير"، ما هو لو الشغل هيقف ولازم تندفع رشوة، فالمشايخ قالوا الوِزر على المُرتشي.

وتنفعل "عبير" جدًّا: لا.. لا.. لا، لعن الله الراشي والمُرتشي، واضحة وصريحة، ولا استثناءات.

ويحتدم النقاش، وتحاول "منى" وضعَ حدٍّ لطريقة "عبير" في التّعاطي مع أرض الواقع: لا بجدّ بقى أختلف معاك، كده محدّش هيشتغل، هوّ فيه إيه

كده بزيادة، يعني أيام التخرج قلت ماشي، ممكن.. لكنْ كده هتقعدي في البيت؟.

وبلامبالاة بالحياة هزّت عبير كتفَها في هدوء: آه عادي.. {وقَّرْنَ في بيوتكن}، وده أضمن، أنا بجدّ فوجئت بالدنيا ماشية إزّاي يا منى.

حقًّا، عندما يختلط اليقينُ بالفطرة السليمة فالطبيعي أن يكون النّتاج سويًّا، تقيًّا، حرًّا وقويًّا، لكن ماذا إذا كان الخليط ممْزوجًا بالصمتِ وإعلاء العيب فقط، ويشوبه جهل مُخيف بمُفردات تُركنا لنتعلّم مفرداتها بأنفسنا واحدةً تلو الأخرى؟، لقد كانت ردّة فعل "عبير" اتقاءً لأيّ خروجٍ عن المألوف، فها هي الآن ربّة منزل منتقبة، تؤثر السّلامة دائمًا، وتحيا في هدوءٍ وسلام، فهل هي حقًّا هكذا أم أنّ ليس كلّ ما يبدو باديًا؟!.

ويشقّ الصمت صوتٌ تعرفه تمامًا: "عبير"، (ومكرّرة النداء)، "عبير"، فيه إيه؟

وتستنجد "عبير" بها كأنّها تكملة أحجية ستعيد مُنى كاملة فيعودَا معًا: "هدى"، الحقيني، دي مُنى، مُنى يا هدى!.

وتنخرط في بكائها مُمسكة بيد "منى".

وبينما تشقّ "هدى" الطريقَ لتصل إلى "عبير" ملقية نظرة إلى الجسد المسجّى على الأرض، تساءلت: "منى" مين؟!.

ورويدًا رويدًا بدأت تتّضح الملامح عبر الزمن والدماء والأتربة، واستعادتْ ذاكرة العين صورة صديقة طفولتهما، فشهقتْ في لوعةِ تشقّ القلوب: "منى".

ارتجّ المشهد كاملًا بالأسى، وبكى "حورس"، وانتحبت القلوب، وانفلتَ زمام التوقيت، وعادت سريعًا إلى حيث كانوا أمامَ حانوت عمّ "علي" حيث يجلس ثلاثتهم كعادتهم دائمًا حينَ يريدون اتّخاذ أي قرار.. إنّه إذًا مجلس حرب الطفولة قدِ اجتمعَ بكامل هيئته.

وعاتبتها "عبير": اتأخّرت ليه يا هدى؟.

والتفتت إلى "منى" مؤكّدة: والله أنا رُحت ناديت عليها أول ما قلتيلي.

وكعادتها في رفض أيّ تقصير قد تكون فعلته، أكّدت "هدى": حصل إيه؟! أنا جيت بسرعة أهو.

وتلتفتُ لها "منى" في حُزن: أنا حاسّة إنّي هاموت.

وتنتفض "عبير" من الفكرة وترفضُها: أنت بتخوّفيني ليه؟، هوّ مش كفاية "هدى" بتقعد تخوّفنا؟

وتردّ "هدى" بنظرة تخابثٍ أكبر من الطفوليّة بقليل: أنا؟ أبدًا.

وفي تحدٍّ غير معهود من "عبير" استطردتْ حديثها: لا، أنت بتخوّفينا، وهاقول لربّنا وتروحي النار.

وينهار صبرُ "منى" من عدم تقديرهم للموقف، فصرخت فيهما: كفاية خناق، أنا بقى هاموت، ومش عارفة هاروحِ الجنة واللّا النار.

وتردّ عليها "عبير" في صدقٍ وتلقائية: هاتروحي الجنة، أنت طيبة، ومش بتخلّي حدّ يضايقني، وكمان شاطرة في المدرسة، أنا بحبّك.

وبعبثيّتها المعتادة تتدخّل "هدى": وأنا كمان هاروحِ الجنة. مُتمايلة في طفولة شقيّة بغرض إغاظة عبير التي انفعلت قائلة: لا، أنا ومنى بسّ، أنت وحشة.

ونظرتْ لها "هدى" في ثقةٍ تامّة: الصغيّرين أصلًا كلهم بيروحوا الجنة.

وتندهش "عبير" وتنفي: الصغيّرين مش بيموتوا.

وتُنبئها "هدى" بعلمها الذي ما فتئت تؤلف معظمَه كعادتها: لأ بيموتوا وبيروحوا الجنة، ما هُم دول الملايكة يا عبيطة.

ويحتدم النقاشُ بينهما، تصرخ "منى" فيهما في عنف: بطلوا بقى مش وقته، هاعمل إيه دلوقتِ؟!، هاموت وأنا كبيرة واللّا وانا صغيّرة، إيه اللّي هيحصل، هنعمل إيه؟.

"هدى" وقد أحسّت بالجدية واختلاف الكلام عن الهزل، ولأوّل مرّة تعترف: أنا خايفة، أنا عاوزه أروح معاكم الجنة.

وتبدأ في بكاءٍ بخوف حقيقي.

وانبرتْ "عبير" تكرّر ما حفظته عن ظهر قلب من أستاذ "أحمد حليم": اللّي عاوز يروح الجنة لازم يعمل اللّي ربّنا قال عليه، الدّين المعاملة، الأمانة، الصلاة أهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادة، و..و..و..... إلخ.

"هدى" وقد أجهشتْ بالبكاء لأوّل مرة، فهُم يعرفونها جيدًا فهي ابنةٌ مدلّلة، ولكن من بيت طيبٍ كريم: هعمل كلّ حاجة بسّ أروح الجنه معاكم.

ربّتت عبير على كتفها، وقد أثار قلبَها الرقيق دموع صديقتها: خلاص نآخدك معانا.

ويبرُق تساؤل في ذهن "هدى": طيب لو متنا واحنا كبار؟

والتقتْ نظراتهم الثلاثة في ترقّبٍ حسمته "منى": إحنا نعمل كلّ حاجة صحّ وربّنا هيآخدنا سوا الجنة، لازم نفضل سوا، ولازم نتفق.

وانطلقَ صوت عبير وهدى في وحدةٍ نادرًا ما تحدث: اتفقنا.

وانطلقتا مُسرعتين في فرحةِ مَن ضمن الجنة، أرادت أن تلحق بهما ولكنْ هيهات، فمهْما تحرّك الزمن بنسبيته داخلنا، نظلّ مُقيدين برواسخَ إلى أرض الواقع، إلى حيث أنشب النصيب فينا مخالبَه، واستقرّت الأنواء على كاهلنا، وصم ضجيج الحياة آذانَنا، ولكن يظلّ الأمل دائمًا أنّنا (سنستطيع)، فهل استطعْنا الحفاظ على الوعد الذي أبرمناه؟

يخفتُ صخبُ الحياة تدريجيًّا، صوت همهمة يبدأ في الوضوحِ أكثرَ فأكثر، أصواتٌ تتداخل صادرة من غرفة مكتب بإحدى المستشفيات، حيث يجتمع عددٌ من الأطباء، حديث مشوبٌ بما يشبه الحذر المُصطنع بالطبع.

يتصدّر صوت د."لطيفة" الحديثَ قائلة: والله تعبنا من الناس اللّي عاملة نفسها قمم في الأخلاق دي، بسّ ربنا مابيسيّبش.

وتقاطعها صديقتُها اللدود د."حكمت": مالناش دعوة يا "لطيفة"، دي مهما كانت زميلة وزوجة زميل.

وترفع ذقنَها في تعالٍ: وأنا قلت غير اللّي حصل يا "حكمت"؟، وبعدين أنا لا يُشرّفني أعرفها، ولا أعرف جوزها.

ولوتْ عنقَها كالحية في امتعاض، وكأنّها مبعوثة آلهة السماء للفضيلة! عجيبة هي هذه الإنسانة، هي قدْ تعدّت الأربعين ولم تتزوّج بعد، وكان الجميع يحسدونها علانيةً على حريتها من هموم الحياة المعتادة، ولكنّها الوحيدة التي كانت حانقة على وضعِها، وكانت تتعمّد أن ترتدي أقصرَ الملابس، وتُطارد ما تبقّى من مسحةِ جَمال في وجْهها بالمساحيق،

ولكنها أبدًا ما تمكّنت من أن تُجمّل أخلاقها وسمومها التي تبثها على الجميع، وتُرغم الجميع على اتّباعها، فلا أحد ينكر قوة شخصيّتها.

وتقول مؤكّدة حتى لا تتركَ فرصة لأحدٍ أن يُكذبها: يا بنتي، أنا كنت حاضرة الولادة، الطفل ده مُكتمل تمامًا.

ولم يستطع د. محمود الصمتَ أكثر من هذا على حديث كهذا: يا دكتورة لطيفة، خلاص قلنا ابن سبعة، وهيقعد في الحضّانة لحدّ ما يكتمل.

وفي شبه عراكٍ انتفضت فيه عروق رقبتها، وهي علامة مُميّزة لها في عصبيّتها قالت "لطيفة": الكلام ده تضحكوا بيه على الباقيين، أنا لأ. (قالتها بعنف).

وحاولت د."حكمت" تهدئة الموقف بطريقتها قائلة: خلاص يا عزة، إنّ الله حليم ستار، مالناش دعوة، دي أعراض، واللّي ماشافش مايقولش، دي أعراض ربّنا يعافينا، بسّ بجد.. أنت شفتِ الطفل بنفسك؟!.

تعجّبت "منى" من "حكمت"، فهي قروية وتحمل كلّ ما في الريف من طيبة وأخلاق، وما سأدعوه ذكاء ريفي فطري، وإن كان دائمًا ذا مغزَى

مُلتوٍ، لم تشاركهم "منى" الحديث، فهي ليست مثلهم، ولا تأبه بمثل تلك الأحاديث التي يتقوّتون عليها كلّ يوم ليشبعوا شيطانهم، وقد أثار ذلك حفيظتهم عليها، وصارتْ مستهدفة منهم، شيءٌ ما استرعى انتباهها في حديثهم لأوّل مرّة، نعم.. إنّها تعمل في نفس المستشفى التي يتحدّثون عنها، نعم.. إنّه نفس اسم الزوجِ، تُرى هل هو متزوّج من أخرى غير"هدى"؟!.

اعتدلتْ منى في جلستها، وانتبهت لحديثهم في تربّص.

وتصلها تمتمة د."محمود": لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، أقسمُ بالله حرام، حرام عليكم بقى، يا هوانم من باب حتّى الزمالة اتّقوا الله.

وتعتدل د."لطيفة" على كرسيّها واضعة ساقًا على الأخرى، وموجّهة نظرها لزميلها: الكلام ده تقوله لصاحبك يا "محمود" لمّا يبقى لسّه متجوّز ويخلّف عيل كامل بعد ست شهور، ما هو لوْ ربّنا عاوز يستره كان سترُه وخلّاه حتى ابن سبعة كانت عدّت!.

انتفض د. محمود خارجًا مُتمتمًا في عصبيّة: حسبي الله ونعم الوكيل فيكم، هو انتوا عارفين الزواج كان متى!

وخرج تاركًا لهم منصّةَ الشيطان يرتعون فيها بكذِب الحديث، ويخفّ صوتُه تدريجيًّا وهو يدعو: اللّهم استرنا فوق الأرض وتحتَ الأرض، ويوم العرض عليك يا رب.

وانخرطتْ كلّ من لطيفة وحكمت في ضحك وهمس ولمز، وتساءلت لطيفة في خبث: فاكرة يا حكمت لمّا رحنا نبارك لهم كان كلّ المفروشات بيضاء، والست "هدى" تقولّك أصل دي الموضة! أتاري عملتهم هيّ اللّي بيضا قوي.

ارتطم اسمُ "هدى" بأعمق نقطة في وجود "منى"، نعم هم لهم أعوام لم يلتقوا، ولكنّهم في أصل تكوين بعضهم البعض، سألت منى في وجلٍ على غير عادتها التواصل معهم: هدى مين؟.

راجية من الله- عزّ وجلّ- أن تكون "هدى" أخرى، فالوعد بينهم، وعهدُهم الجنة.

نظرة متخابثة من د."لطيفة" أودتْ بآخر أمل قائلة في تعالٍ: دكتورة هدى الصّيدلانية هي وزوجها دكتور عادل زميلنا.

مادتِ الأرض بمنى، هل خانت "هدى" العهد؟!، ألهذه الدرجة مِن المُمكن أن يختلف أصدقاء العمر، مَن نشئوا في المكان نفسه، ونفس الأهل، ونفس كلّ شيء، عاشوا كلّ الأحداث، بل والأكثر فلقد عرفوا العيب معًا!.

وتراءت صورةُ "سالى وسعيد" تتراقص في الأنحاء، رقصة موتى، هل حقًّا ظلمناهم؟، كنّا أطفالًا لا نعي، هل حقًّا نحيا أحداثهم؟ لا أُصدّق. فهي متأكدة من افترائهم على الجميع، ولكنّ الناس أجمعهم لا أحد يتحرّى الحقيقة، إنهم عبدة وثن الهُراء، وعاهدت نفسها، ستثبتُ كذبهم، إنها رفقة عمر.

وذهبت إلى عبير ليضعوا حدًّا لهذا الهراء: "عبير" عرفتِ اللّي بيتقال على "هدى"؟! (قالتها موتورة).

نعم سمعت. هكذا ردّت "عبير" في برودٍ مستحيل، ثمّ أكملت حديثها: أنا سمعت بسّ، ومأأقدرش لا أحكم ولا أتكلم.

تعجّبت "منى" من هذا الهدوء، فأين الحقوق التي أضاعت عبير من أجلها الكثير: حقّها علينا نكلّمها، وحتى لو غلطت–وإن كنت أشكّ– نقف جنبها.

وبمُنتهى الوضوح حدّدت "عبير" موقفَها قائلة: لا ماليش دعوة، أنا مش هتكلّم في الموضوع ده.

توسّلت "منى" لها: طيّب نروح لها، نسألها حتى، دي عشرة عمرنا.

وبصورةٍ قاطعة ردّت "عبير": أنا عن نفسي لأ، جوزي قالّي ماتكلّميهاش تاني.

وهنا اكتملت دائرةُ الذهول لدى "منى": جوزك؟! طيب ورفع الظّلم؟ وإغاثة الملهوف، وعيادة المريض حتّى؟ هوّ إحنا لينا غير بعض؟!.

وكمَن يقرأ محفوظات ردّت "عبير": طاعة الزوج فرض، وكلّ ما تقولينه ليس فرضًا.

لا، لم تحتملْ "منى": عبير، هيّ متجوزة دلوقتِ على الأقلّ نزورها نبارك على الطفل، نقولّها ببساطة إحنا معاكِ.

اتّقوا مواطن الشبهات. هكذا أكملتْ عبير باقة المحفوظات التي تردّدها، ثمّ نظرت إلى "منى" قائلة كمَن يُريد أن يجد أيّ مفر: إحنا لينا سنين ماتقابلناش معاها.

أحنتْ "منى" رأسها وتمنّت: ليتنا مِتنا أطفالًا.

وتنهمرُ الدموعِ على كلّ شيء، تختلط دموعهم الثلاثة بجوار الجسد المُسجّى على حافة الحياة، ما كل هذا الألم! كيف تحتمل الحياة كلّ هذا الخذلان في أقلّ من عشرين ثانية، لقد فشل مجلسُ الحرب قبلَ أن تبدأ مناقشاته، وتلامست أيدي "عبير وهدى" لأوّل مرّة فيما يبدو منذ عقود، اجتمعتا على يدِ "منى"، كما كُنَّ دائمًا في لهوهم أطفالًا فرحين بلعبة كيلو بامية التي يحتكمون إليها كلّما اختلفوا، نظرة جمعت بينهما يملؤها العتاب والوهن، والاستسلام للأقدار بكلّ تفاصيلها.

صوتُ "هدى" في عتابٍ أطاح بمقاومة الجميع: وحشتيني يا عبير.

لم تستطعْ "عبير"من عنف البكاء التحدّث، من خلف نقابها يطلّ الأسى من عينيها المميّزتين، وتنقش دموعها اسم "هدى" على وجنة الذّكريات أجمعها: حبيبتي يا هدى.

صمتُ الخذلان يَحني رأسَ الجميع، فما بين خاذلٍ يأسف ويعلم أنّه لا يستحق العفو، ومخذول لا يملك إلّا الصفح، فللأحبّة مقاييس هي مقاديرهم. ليتنا متْنا أطفالًا، صرخة من "منى" شقّت بها أستارَ السماء والوجود، زلزلت عرش روحِها في السماء، وتساقطت شهبًا من الألم تحرق أجنحة تميمتِها لتصرخ في نواحٍ، وتحرق كلّ معنى للحياة، وماذا بعد، هل مازال هناك بعد؟!،

رحمتَك يا الله.

11 ثانية

____

صمتٌ يُطبق على المشهد كاملًا، حتى صوت البكاء أصبح صدًّا مِن أغوارٍ سحيقةٍ في الوجود، يجتاز الزمنَ اللامعلومِ في طبقاتِ حياة متعدّدة، نبضات الذاكرة آخذة في الوهن، تجول "منى" بعينِ ذاكرتها في الوجوه تتفحّصها، تمدّ يدَ الرجاء علّها تصل لأيّ من الحضور، فلا ترى إلّا أبخرة الزمن تعود لتتراصّ في توقيتها، ويُمسك الزمنُ بفرشاته ليعيد كلّ عناصر اللّوحة للواقع، يخُطّ التجاعيد على الوجوه التي كانت طفلةٌ أو شابّة، وتترهّل الجفون المُحدقة في الجسد الهامد أمامهم، يمحو أشخاصًا، ويُضيف آخرين، ويُصبح لون البيوت المتأنق رماديًّا شاحبًا تعلوه صُفرةُ الموت، حتى المنازل تمتلئ بالتّجاعيد والوهن، ويُغيّر خريطة الشارعِ والبيوت، فتهدمت بيوتٌ جميلةً، وغزت الشارعَ مبان عملاقة لا تتناسب مع هدوئه وعَبَقه وضيقِه النّسبي، بل لا تتّسق مع حميميته، ذَبُلت الورود التي كانت تُميز شُرفة ابن الجيران، بل أُغلقت الشرفة وعلتْها الأتربة، كما لو كانت قد قضتْ منذ عقود، ضوء شمس مُلتهب يشُقّ أستار العين، إذا فقد أُزيلَ المنزل الذي كان يحجبُها في هذا الوقت من اليوم، وهناك على

قمة الشارع البيتُ المرتفع الذي يتّخذه "حورس" منصةً له قد أُزيلت كلّ طوابقه، ما عاد إلّا طابقين، لا تدري كيف دارت بعينيها إلى الخلف لتطمئنّ على بيتها الذي عشقته، لا تدري فالآن كلّ شيء أصبح بمقاييسَ برزخيّة لا معلومة، وكانت القاضية، فالمنزل شَحبَ لونُه، تهالكت شرفاته، واقتص الزمن من واجهته فأصابها بلافتة (منزلٌ للبيع) ليتها ماتت، ليتها قُضت قبلَ أن ترى وباء الجحودِ هذا، فليس من حقّ أي أحد اغتيال كلّ ذكرياتنا، فكلّ ذرّةٍ بمنازلنا ونحن أطفال هي ذرات تكاثفت لتكوّننا، تتشابك في تكويننا في ذراتنا وأرواحنا، من يجرؤ؟، لماذا لا يتركنا الكبار وشأننا؟ حين كنّا صغارًا كانت تلك حُجّتهم، والآن ما حجّتهم؟، متى سينتهي مسلسل فرض الوصاية علينا؟، سأعود ولو كان لهذا فقط، أفيقوا، سنثور لعُمرنا يومًا ما، وسنستعيد كلّ ما سلبتمونا من حياة ومن ذكرى، وأزفّها إليكم، لستُم أحرارًا في العبث بوجداننا، لستم ولنْ تكونوا، ولن نسمح لكم بمزيدٍ من الظلم، أفيقوا واخشوا مِن لحظة ارتداد القهر، فالقوس قد بلغ مداه، والوتر اشتدت يُمناه، ثورة عارمة أطاحت بكلّ ترنّح لنبضات الذكرى التي كانت قد بدأتْ في الوهن، وقبلها قد عجز المسعفون والطبيب في عمل أيّ شيء لها، شحذت كلّ ثوريتها، غضبٌ

يُطيح بكل المعالم، يغمم على كلّ المحيطين، نُكران لمَن كان ومَن يكون، رفضٌ من الذاكرة لواقعٍ يهذه العبثية المُفرطة.

حتمًا سيتمّ تغييره، هكذا حدّثت "منى" نفسها، واحتدت في ثورتها حتّى تلاشى شعاعُ الشمس وإن استمرّ ضوء نورانيّ قوي، كشروق شمس ليلة القدر، بلا أشعة وبلا لهيب، يا إلهي. هكذا حدّثت منى نفسها، ما هذا؟! أعلامةٌ قدريةٌ أم رجاء تحقّق؟.

صوتُ تراتيل تتهادَى من السماء في وقع تصاعدي، يُعلن بقدوم المُرتّلين من السماء، تقترب الترانيم في إصرارٍ، يتخذ "السحاب" موقعَه، كما عهدته "منى" دائمًا، يتلمس السحاب أقدام العائدين، يَحْملهم في طيّاتِهِ كدرجٍ امتدّ من اللانهائية السّماوية، وبدؤوا في الظّهور، صفّ من أرواح يتهادى، يحمل كلّ منهم قنديلًا مُوَشّى بفضةٍ ذائبةٍ ولا تسقط، تترجرج مع انسيابِهِم حيث ترقد "منى"، سيل لا ينقطع، يمرون في دربهم على "حورس"، فمازال في حضرةِ روحِه، يُمسك "حورس" بقُدّاحةٍ من الدّر، يُشعل قنديل كلّ مَن يمرّ به، وكأنه يبلغهم وصيّته لهم بها؛ أنْ أنيروا لها طريق الهداية، أن ساعدوها في اتّخاذ القرار. يعلو الصوتُ تدريجيًّا في حنين، يكتنف "منى" بعضُ الأمان والاستكانة، فقد بدأت الوجوه تتضح،

وامتلأ كلّ المكان بالقادمين، ما أسهلَ الصعود إلى السماء في حضرة كلّ هؤلاء الأحبة، فلقد كانت أرواحُ كلّ من عاشوا بالشارع والأهل، ومَن رحلوا، صخب حميمي ينتاب الجميع، وجوههم نَضِرة مستبشرة، ابتسامة نورانية تعلو وجوههم، حقًّا الآن فقط أيقنت أنّ الأحبة أوّلُ مَن يرحل، فلقد انزاحت الوجوه عن وجهيْن همَا الأحبّ إلى قلبها؛ الجدّة والدة والدتها "نينة" كما اعتادوا مناداتها، والخالة الطيبة، يقتربون في ودّ، يبتسمون ويفترشون الأرضَ بجوار جسدها، يُطِلّون على وجهها بقناديلهم، ليتأكّدوا فيما يبدو من هويتها، ثمّ وضعوا القناديل جانبًا في لهفةٍ، رفعت الجدّة رأس "منى" على صدرها، في حضنٍ كمِ اشتاقت له منى عقودًا، أخذت تمسح الدم بيدها من على كلّ ملامحها في حنانِها المعهود، مُرَدّدةً في همهمة آيات وأدعية وهي تناجيها: قرّة عيني يا ابنتي، إنّها فعلًا "منى". موجّهة نظرها إلى خالتها التي صدمَها تصريح الجدّة، وعلا صوتُها: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، ليه يا "منى" عملتِ كده

حبيبتي؟!، ده أنت صبورة وقوية وبتتحمّلي وبتنجحي!

واندهشت "منى" قائلة: أنا؟! أنا عملت إيه بس؟!.

وأكملت خالتها الحديثَ كمَن لم يسمعها: ليه يا حبيبتي تنتحري؟، كنتِ كلّمينا، تعالي اشتكي لنا مش إحنا متعودين سوا على كده؟!.

لا يمكن، أنا مستحيل أنتحر، أنا لسّه ورايا حاجات كتير، وبعدين ده حرام، مش بعْد كلّ الصبر ده هعمل الحرام!

هكذا نفت "منى" في عنفٍ اتّهامًا أبعدَ ما يكون عن شخصيّتها. ولم يتمكن منها استرسال خالتها وهي تؤكّد: ساعات بييأس الإنسان، وأنت اتحمّلت كتير قوي، بسّ أنا فعلًا سايباك ومش مطمّنةعليك، ليه بس؟

وتكاد "منى" تنتفض رفضًا: لأ مستحيل، أنا عمري ما أيأس أبدًا. مُردّدة في عنف {ولا تيأسوا من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون} صدق الله العظيم، كم تعشق سورةَ يوسف، فهي تحفظها عن ظهر قلب، وتؤمن بكلّ حرف فيها، اليأس ليسَ من مفردات حياتها.

فكثيرًا قد نتألم، وقد ينتابُنا الانهيار، ولحظات شكّ في قدراتنا، ولكنْ دائمًا ما نتشبّث بوعود الله، فقد وعدنا بأنه سيستجيب، وأنّه قريب، وأنّه بجلاله لا يُكلف نفسًا إلّا وسعها، فكيف لا نكون مرضى بالأمل ونحن عبيدٌ لإله بهذا الجلال، وهذه الرحمة؟! فإن كنّا أحيانًا نتألم فإنّه فقط

لتعجّل إنساني وضعف بشري، فنحن لا نعلم متى الأجل، حقًّا متى الأجل؟ هل حان؟ تساءلت مُنى في صوتٍ خفيض لكلّ من جدّتها المنهمكة في احتضانها وخالتها الطيبة، تبادلا النظرات في حيرة: ماذا تريدين؟

وتتشبّث كعادتها في الأمل: أنتم جايين تاخدوني معاكم، صح؟.

همستِ الجدّة في أُذنها بحديثٍ ذكّرها بحكاياتها التي طالما أنسَتْ إليها: لا يا قلبي، إحنا كنّا جايين نلحقك وإنت بتقعي، قلبي انخلع لمّا شفتك بتقعي، ناديت خالتك وجينا جري، بسّ سبقتينا.

وبلّلت دموعها طرفَ شالها الأبيض المعتاد، كان شالها أبيضَ دائمًا، والآن هو هالةُ نور تُحيط بوجهها الفتيّ الجميل، إنها حقًّا أكثر مَن رأتهم في حياتها إيمانًا في بساطة، وعبودية لله في تسليم، نورانية السّريرة، وعلى مستوى آخر كانت الخالة، فهي في حقيقة الأمر الأقربُ للجدة، ولكن.. انزعجت "منى" فقدْ ظنّت أنّ الاختيار قد تمّ، وأنّ الحيرة قد انقشعت.

ولكنْ أيضًا كم هو جميل أنْ نجد مَن يهتم بنا وإنْ رحل، فتظلّ روحُه تشتاق إلى حمايتنا، ونظلّ نحن ننتمي إلى أحضانهم، حتّى وإن كانوا بلا بوصلةٍ تَهدي لرأي، فتكفي الطمأنينة والحنان لهدايتنا في أدقّ المواقف.

قنديلٌ آخر يقتربُ بنورهِ، يحملهُ رجلٌ دقيق البنية، ضيق العينين، وزادت ابتسامتُه من ضيق عينيه حتى كادتا تختفيا، اقتربَ في رفقٍ حانٍ، تأمّل وجهها المنير بفرحة لقاء الأحبة، انزعجت ابتسامته حين رأى انهماكَ خُصلات شعرها في الدّماء والأتربة، وهو يعلم مدى اعتزازها به، نَحى قنديله جانبًا، وانحنى في قُدسيّةٍ، ينهل من نور القنديل ويمسح على شعْرها، خُصلة خُصلة من مَنْبتها يربّت عليها إلى آخر مداها بحنانه المعتاد، أحسّت "منى" بدموعه تسبق تربيت يدِه على خُصلاتها، فتساءلت: لماذا تبكي؟!

أجابها فيما يُشبه الصّدق: فرِحًا بلُقياك ثانية.

ولم تُردِ النظر إليه، فبينهما عتابٌ لم يتم: أمَا زلت تذكرني؟

وبكلمةٍ واحدة رد: أفتقدك.

تحرّكت زاوية شفاهها فيما يُشبه الابتسامه الساخرة قائلة: تفتقدني وأنتَ في الجنة؟!.

وكعادته بمعسول الكلام قال لها: أنتِ جنّتي المفقودة.

حاولت ألّا تنفعل، ووجّهت له لومًا مُستَحقًّا: أنتَ مَن رحل مبكرًا، تركتني...

وهنا تَلبّس "رجلُ القنديل" عباءة التّقوى: لكُلّ أجلٍ كتاب، لو كان بيدي ما تَرَكْتُكِ أبدًا.

رَدّتهُ في عنف: بل تركتني وكنتُ بين يديك. وتُطرق برأسها مُشيحة بوجْهها عنه، تذكر من آخر حوار بينهما، وقد بدا أنه منذُ عقود، كيف كان الموقف عصيبًا، وقرارٌ تمّ اتخاذه من قِبَلِه منفردًا، حتى حقّ الاعتراض اغْتُصب منها.

: لازم نرتبط. كانتْ تتحدّث بجدية وصرامة.

تذكُر جيدًا صوته وهو يقول: مش هينفع.

تعترض بشدّة: لازم ينفع.

وفي إصرارٍ لم تستطعْ أن تُعزيه حتى الآن إلى التقوى أعلن القرار: لست لي، إنّه النصيب، والقدر حين يتمعن في التمكن مِن توقيتاتنا.

لا، ليس حقيقة؛ فأنا لم أرتبط بعدُ، إنّه مجرد طقس بين العائلات. قالتها "منى" في حزنٍ ورعب من مدى تسلط التّقاليد العقيمة على وجودنا ومقدراتنا.

ووضع النهاية بجُملة قميئة: فقط، إذا لم يتمّ ارتباطك بدون أي تدخّل مِنّا حتى لا يقتصّ منّا الله، سنكون معًا طول العمر، وحتّى آخر العمر.

ويا لها من جملة دائمًا ما تُعلن انقضاء العمر أقرب ممّا نتخيّل. يدقّ جرس الهاتف، على الطرف الآخر صوت صديقتها الوحيدة التي تعيشُ معهما أطراف الحكاية: مات.

كلمةٌ واحدة أمادتِ الأرض من تحت قدميها تصرخ في لهفة مكْلومة، متسائلة بصيغةٍ تُجبر المتحدّث أن ينفي، ولكن هيْهات: مَن.. من مات؟!.

تُردّد صديقتها في إصرارٍ حزين: مات، مات يا "منى".

وتُغلق الهاتف قبل أن تسمعَ صرخة "منى"، صرخة مكتومة، ارتدّت إلى روحها شطَرَتها نصفين في صمت، فما كان لها حتى حقّ التعبير عن صدمتها. أغلقت الهاتف والتفتت بحركة آليّة تكمل ما كانت تطرزه بيدها، ولكنّها أبدًا ما عادت "هي" ثانية، ولكنّهم لا يفقهون. مدّ "رجل القنديل" يدَه يلتقط دموعَها قبل أن تتهاوى على الأرض قائلًا: غاليةٌ أنت ودموعك.

"منى" من سحيقِ اليأس: ما عاد شيء يهمّ.

ويأتي صوتٌ قال محاولًا إغراق نبرة اليأس في مشاعرها، وهو ينظر بصبابةٍ إلى شعرها بعدما غسلّه بنور قنديله، وما عاد هناك أيّ أثر لدمائها المختلطة بتراب شارعها: لم أكن أعلمُ أنّ شعرك بهذه الروعة والحياة. قالها وهو يرتب خصلاتِ شعرها على امتدادها لتغطّي كلّ ظهرها وتتناثر في إبداعٍ حولها، فكلّ خصلة تعرف أين تحديدًا مكانُها الذي يضيف لها روعة وحياة.

نظرَ إليها بإعجابٍ شديد: حورية أنت، حوريتي..

وكمَن يُريد إنهاء الحديث ردّت بلا عمق: كم حدّثتك عن ماذا يعني لي بخصلاته وجنونه.

أجابها وبعينيه لمعةُ عشق: نعم، ولكن ليس مَن سمع كمن رأى؛ فعشق فوق العشق عشق.

منى: إذًا، فقد عُدت لتصطحبني إلى السماء؟! فلا حوريّات على الأرض.

قالتْها في سخريةٍ مريرة، فهو قدْ خذلها قبلًا حين خضع للتّقاليد البالية، وخذلها مرةٌ أُخرى حين رحلَ مبكّرًا، وقمة الخذلان حين تركَها تلاطم كلّ هذه المشاعر دون أحقية في الصّراخ. دائمًا ما كانت المعضلة هي لماذا يخذلنا مَن نحب؟!، هل لأنّ توقّعاتنا أكبر من قدراتهم، أم لأنّنا نرضى منهم بأيسر اليسير؟!

وحتّى في هذه اللحظة المتفردة يتنصّل، ويجعل لذلك منطقًا حيث أجابها: كم أتمنّى حوريتي، ولكن لك حياة جميلة على الأرض، وإنْ أرهقتك أو خذلتك، فلا بدّ أنك سعدتِ ببعض مُفرداتها، إنّها لحظة يأس تلك التي أحضرتك هنا بالتأكيد، فعودي.. ربّما تجدين ضالّتك بالحياة، وأنا سأعود أدراجي، فقط جئت لأخبرك كم أحببتك، كمْ كنتِ لي روحًا

وعمرًا تمنيت أنْ نحياه سويًّا. قالها وهو ينهض نافضًا يدَه من بقايا النور، حاملًا قنديله، بعدما انحنى يطبع قبْلة على جبينها، ولملم أطرافَ حكايتهم في صمتهما وغموضهما الخاص، فَسِرّهما أصبح قدره أن يظلّ معلقًّا بين السماء والأرض، ومضى في طريقه.

غضّت طرفها، فيكفي امتهانه وانتهاكه لمشاعرها، ما عادت تنوي أنْ تحمل أيّة مشاعر لأحد، فكما تُنادي بالحرية، وجب عليها أن تمنحها لمَن يريد، بل وتحترم رغبته، وإن كان لم يتبعْ آداب ومسئولية البوْح بها، فكما تعتنق هي دائمًا، أن من حقّ الأحبة كلّ شيء، وإن استباحوا، فنحن فداؤهم، ولكن... إلى حين.

ككرة تنس الطاولة تتخبّط ما بين العودة والرحيل، وتأبى عليها ذاكرتها أن تتخطّى حاجز العمر بداخلها، فلقد رأت أبناء رفيقاتها في ذاكرتها، ولكنّها بالكاد ترى أبناءً لها، لماذا؟!، أبهذا القدْر ساءتْ حياتها، فوق احتمال الذاكرة؟! هل تأبى الذّاكرة أن تستعيدَ كلّ السنين من الألم؟!، هل أحبت بجنون وتمّ خذلانها؟! أم قامت بالتضحية حتى بذاتها- فهذه طبيعتها- ثمّ لم تجدْ سوى السراب يحتلّ كلّ محتواها؟! أم هو فقدان الذّاكرة المؤقت عند الحوادث؟! ولكنّه فقط يحدث تجاه الحادثة وتفاصيلها،

على عكس الواقع الآن فهي تدرك كلّ شيء خاصّ بالحادثة، بل وتحيا أحداثَه بتفاصيل أدق من حياتها، إنها تدرك مراحلَ الرّحيل بين كلّ هؤلاء بالذاكرة، فلقد بدأت وفودُ القادمين من السّماء في التواتر حتى أضحوا كسيلِ نورٍ موصول، آخذ في الحركة حولها، ما عاد واضحًا للعيان أو حتّى لها، أعائدون أدراجهم أم آتون إلى حضرة مشهدها، ولكنّ الأكيد أنهم جميعًا يحبّونها، وهم لها الأحبة تأنس في كنفِهم، وفي منطقة رمادية بين كلّ (الوجود) فلقد أصبحت ترى كلّ البشر في طبقاتٍ وجودية عجيبة، فمَن رحل بقدرٍ واضح كالنور، ومَن على قيد الحياة هم على قيدها بوضوحٍ، ولكنْ من هؤلاء الذين علتْ وجههم لهفة بلا ملامح حقيقية تجسّدها، وحُبّ طغت ثورتُه على ما تبقّى من ملامح وشفافية فأضحوا كمَن تخطفتهم سبلُ الرحيل ولم يجدوا بعد طريقَهم إلى السماء أو إلى الأرض، وحتمًا إليها.

واقترب، بل خشي الاقتراب، فقط نظر مِن على بُعد سحيق، نعم.. نظر، ولكنْ بلا أعين، فقط اخترق حجابَ البصيرة ونظر، أحنتْ رأسها في عتابٍ خفيض، رفعت عينيها تتفحصه، لقد أتى حاملًا إليها أيقونتَهم، شُجيرة صغيرة، يدعونها متقزمة ولكنْ بها كلّ تفاصيل حياة الشجرة العريقة العتيقة، لقد وعدها يومًا أنّه سيحضر لها "بونساية"؛ هكذا يسمّونها،

وسيحضرها من بلدِها الأصلي، ككلّ شيء بينهما، أصليّ، دقيق، مشذّبٌ بعناية، ولكنْ بلا امتداد ولا حرية في شقّ أستار الهواء والحياة، كم تمنّت أن تكون مُخطئة؛ فهي تعلم أنه لن يفيدَها في شيء، فلقد عهدَ على نفسه الصمت حيالها، ولكنه هو، ولو كان بلا ملامح أو صوت أو حتّى ملمس، اقترب في صمتِه غير المعتاد إلّا في برزخِ الرّحيل أو الخذلان حين تركها بإصرار، قائلًا: عفوًا، لم نعدْ فقط أصدقاء، ولن أستطيع إلّا أن أحيا مشاعرَ عاشق لكِ، وصدّقينى ستدمّر كلّ حياتك، وسأقتني كلّ مقدراتك، ولأنّك الأغلى سأرحل في صمتي.

وسحق كلّ وجودٍ للصديق في قاموسها. وللمرّة الأخيرة نظرت إليه في رجاء: أمَا آن الأوان؟! ف"منى" تحتاج وجودك ونصحَك، فلنَحْلُل المعضلةَ ككلّ المشاكل التي وضعنا لها حلولًا سويًّا!

هلّا أتيت؟!

أم أحقًّا رحلت؟

على الأرض أنتَ أم في السماء؟

أعلمُ أنك حيّ ترزَق،... أجبني.

قالتها في صراخٍ وعصبية، فلا وقت لأيّ شيء، وللصداقة علينا حقّ، فخذلان الصديق هو الأقسى على الإطلاق، لأنه حيث نتّكئ بكلّ عيوبنا ونواقصنا، فمعهم نحن أحرار، ويا لها مِن غالية كلمة الحرية، فهي في ميزانها تعدلُ الحياة، ونعلم أنّهم لنا محبّون ومستمرّون في صداقتنا مهْما كنا، وكم كان اتّكاؤنا بقدر مشاكلنا وهي كما يبدو عظيمة، وإلّا.. فكيف يكون هذا الارتباط بكلّ هذه القوة، وكذلك الخذلان؟!

أجبني. ردّدتها بصوتٍ أثار عنفوان المشهد أجمعه، فلقد انحسرَ سيلُ السماء، وهبطت الحياة إلى أرض الميعاد، حيث ارتطم جسدها.

أجبني. ظلّت تردّدها بعنف وسرعة، وبكلّ كيانها، فلم تثق بأحد غيره، ولا برأي ولا نقاش إلّا معًا، والآن الحدث الأهمّ الاحتياج الأعظم.

احتدّت حتى تحشرج صوتها، اقترب في هدوء وربّت على كتفها، وسجى الشجيرة جانبها، لا تدري في إشارة إلى ماذا، أيوحي إليها أن ترحل، ويُحَملها كنوزها التي أحبّت، في حال البعث تلقى كلّ ما تحبّ كما كان أجدادنا الفراعنة يفعلون؟!، أم يُعلنُ انتهاء صمته ووجوده وكلّ شيء

واذهبي أيضًا كما تريدين، أم هي عودةٌ منه لهما، وأنْ عودي وسيكون كلّ شيء على ما يرام؟!، وازدادت حشرجتُها وهي تصرخ منادية عليه، وكلّما شحب ظلُّ وجوده في الصورة ازدادتْ حشرجتها، وبدأت ترغي وتزْبد من الغيظ والحزن، وانسابت الحشرجةُ من فمها، فلتذهبوا إلى الجحيم، فلتكنِ النهاية، فليكن ما يكون، ماذا بعد كلّ هذه الحياة المُوجعة، لا أريدكم.. ولا أريد أوجاعكم، لا أريد.....

صمتًا صاحَ بها "حورس"، قاطعًا كلّ عنف وصراخ تُصدره: نعم، أريدك لي، أريدك معي، ولكن بكامل اختيارك، وبقرارٍ سعيد، ما كل هذه الآلام؟!، كيف تكون بحياة واحدة، إنك أنت التي تشعرين بحساسيةٍ تفوق العادة، عنيدة أنت، وقاسية على نفسك بقدر حنانك على الجميع.

وبمُنتهى العناد قالت: سأرحلُ حتّى رغمًا عنّي.

يعلنُها لها "حورس": ليس من حقك.

ويتأجّج عِنادُها: حقّي.

وتنتفخ أوداج "حورس" لأوّل مرة معها، وقال بحزم: سأتصدّى لك.

وتستعطفه "منى" في خضمّ عنادها لأنّها تعلم تأثيره عليها: لا تفعل، أنا حرّة.

ويُجيبها في حزمٍ مَشوب بالحنان والقوة: ولهذا سأتصدّى لك حتّى يكون القرار حرًّا، يكون غاليًا لنستحقه.

ولم يُثنِها اللّين البادي في صوته، واستمرّت في تحدّيها: لن تستطيع.

شمخَ برأسه واستعادَ فرعونية قسماته قائلًا: سترين.

منى بعنادها المُعتاد: سنرى.

واستعدّت بكلّ قوتها للرحيل، استدعت كلّ آلامها، وأنفقت كلّ قدرتِها على الاعتراض والحشرجة، واضطربت كلّ مفرداتها، فهي تسحب الروح منها بعنف، سأرحل.

مازالت "عبير" ممسكة بيدِها، ووقفوا بها، وأخذ الموكب في الاصطفافِ حولها، وبدأ الجمع يستعدّ للرحيل، يقف حاملوها في استقامة تطالُ عنان الألم، "حورس" في السماء يظللهم جميعًا بأجنحته؛ فهو يحنو عليها حتى من شعاع شمس، وإن كانت شمس قدريّة، سيل القادمين من السماء

بقناديلهم يحفّون الموكب من الجانبين في تشريفة لانهائية عبر السماء إلى الأرض إليها، يلقي "السحاب" بنفسه صوبَ أقدامهم، فهو أسيرٌ لأيّ قرار قد يُتّخذ، فهو في رحابها متى وأنّى شاءت، ويحمل الضبابيّون ملامحهم بين أيديهم، كالذنوب تقطر توبةً، يحْنون رءوسهم طلبًا لغفرانها، فهُم يعلمون، ويعود صوت التّرانيم إلى الوجود يأتي من السماء حيث كانت تنظر بعين الرّجاء، صوت يلفّ الجمع، إنها ترانيم حبّ عاشت به لهم، لكلّ الحضور. وبدأ الجميع في استجابة واحدة يتمتم بالترانيم، يعلو صوتهم تدريجيًّا من القلب، على أملٍ أن تسمعهم، تلمس صدقَهم، ندمهم على أوجاعها، فتعود، فهل ستعود؟!. ثُمَّ...

صوتُ خطوات مخْمليّة ثابت في إيقاعه، كأنّه يترك لها حيزًا من السّلام لتّتخذ قرارها، فالوقت يمضي.. بلا زمن، ولكن يمضي في اتّجاه لحظة الحسم، يتهادى الركبُ بترانيمه التي كادتْ تقترب من الهمس والهمهمة، فلا يستطيعوا الصمت فهُم بحاجةٍ للتّوبة لها في حضرتها، وللتقرّب لها قربانًا وغفرانًا، وأيضًا احترامًا لجلال صمتها. حاولت أن تغمض جفنيها لتستدعي كلّ قدراتها في التركيز؛ فلقد وهنَ العقل، آخر ما تبقّى من ارتباطٍ لها بالحياة، كيف يمكن أن يحدث أنْ لا تستطيع أن تُرخي جفنيها

على حدقاتها؟!، كثيرًا عندما نحتاج لوضوحِ الرّؤية نحتاج أن نُطبق أجفاننا، كم هو حجم السنين التي قد تمنع لحظة كهذه؟! وكم هو ثِقَلُ الآلام التي تحول بينهما؟! وحجم جبال الوجع التي استوطنت مقلة العين وتشاهقت قممُها حينًا بعد حين.. وحين يحاول الجفن باحتياجٍ وعفويّة أن يرتمي بحضنٍ نصفهِ الآخر يصطدم بالمسافات وكمّ العراقيل في طريقها، عن كمّ الاحتياج وكم الوهن والاستعداد لبذلِ العمر كي يستقرّ الجفن، لن تتحدّث؛ فلقد سئمت الشكوى، وأبتْ عليها الذاكرة، وإن لم يأبَ الألم، ويُصِرّ الجفن على الانسحاب فوقَ العين.. فإنّه الاحتياج الحرج الحتمي، نقطة الارتكاز بين الأنا والـ "هُم"، وما نريد وما نستطيع الإصرار عليه، يُصرّ الجفنُ على الاقتراب.. وتلوذ قممُ الجبال ببراكينها، وينسحبُ الجفن على قممٍ ونارٍ واحتراق، ولا يهتمّ، وتتجمّع سحبُ الإصرار على الاحتضان ووضوح الرؤية، ويبلغ الصّراع أشدَّهُ، احتياج وبركان وسحب ومسافات تُقطع، وهنا تتدخّل الطبيعه لحسم الصراع، فلا بدّ أن تعود الأشياء لمستقرّها مهْما كانت التّضحيات، ويرتطم الجفن بنصفه الآخر، ولكن...

تحترقُ الشّواهق وتتحطم القممُ، وتخترق البراكين بكلّ الألم قلب الجفن، وهنا تتجلّى رحمة الله في السحب التي تجمعت فتسقط دمعًا لا ندري هو

عذابٌ أم رحمة، إنّها حتمًا بقايا آدميّتنا، وبداية خلقٍ آخر من أصل الأشياء "دمع وماء". وما كاد الجفنان يلتقيان إلّا افترقا في جفلةٍ إثرَ سماع صوت مدوٍّ.. الله أكبر، لا إله إلّا الله، صوتٌ يأتي من يسار الشارعِ، صوت جمهورٍ آخر، وبانسياب تلقائي يتّجه الركبُ صوب الصوت، إنّه يَصدُر من الميدانِ الكائن بهِ مدرستها الحبيبة، ترى كلّ شيء كما عهدته؛ فعلى يسارِ المدخل الضيّق للميدان بيتٌ من الطّوب البدائي، وها هي "حليمة" تجلس كعادتها أمام المنزل، تنظرُ في لاشيء، وفجأة تركّز نظرتها على أحد أطفال المدرسة وتمدّ يدها إليه، رعدةٌ سرتْ في جسدها، كم من الحكايات نسجَها الأطفال حولها، مازال بابُ منزلها يتخبطه الهواء، فهو بدون مزْلاج للآن، كانوا يتسارعون بالجري خوفًا من أمامها، ويلقونَ بأعينهم عبر الباب، ليجدوا ما يُشبه الحوضَ الكبير على الأرض، كم استغلّ الكبار جهلهم، إنه بئرٌ تُلقي فيه بالأطفال بعدَ قتْلهم، يصرخ الصغار ويسابقون الريح كلّما مرّوا بجوار منزلها، وويلٌ لمَن يسقط نظرها عليه، قد يسقطُ من الرعب مغشيًّا عليه لوْ مدّت يدها لتمسك بهِ، وكبر الجميع، وعلموا كمْ هي أطيب ما يُمكن أن تقابل بالحياة، فهي أرملةٌ قهرها الزمنُ مرّة واحدة ففقدتْ زوجها وأولادها في حادثِ حريقٍ بالمنزلِ هذا نفسه، وكانت لا تستطيع أن تُغلق عليها بابَ المنزل من الخوف،

فكانت طيلةَ اليوم تنظر للأطفال علّها تجدُ أحد أبنائها بينهم، حتى يَجنّ الليل فتُجنّ من الرعب ولا تخلدُ إلى النوم إلّا على أنغامِ صرير الباب معلنًا أنه ثَمّة مَخْرج إذا ما اشتعلتِ النيرانُ ثانيةً، كانت هي الأكثر هزيمةً ورعبًا بيننا، تُرى كمْ كُنّا السبب في حُرقةٍ أصابت قلبها كلما ابتعدْنا عنها في ذعرٍ وجفاء؟!، ألهذا الحدّ ممكن أن يكون الصّغارُ وحوشًا آدمية، تُرى هل يُعذّبنا الله لذلك؟، لا، ليس هناك مجالٌ لأسئلة أخرى، هكذا حدّثت نفسها، تنتفض "حليمةُ" من جلستِها على الأرض، هل تذكّرتها؟! عجبًا، إنها تتّجه نحوها مباشرة، ولكن تمرّ بها بسرعة الصاروخ، غيرَ آبهةٍ بالمشهدِ بأكمله، متّجهة بنظرتها اللانهائية صارخة: اتْركوها.. اتركوها. وترتمي مُلقية بجسدها في لامبالاة أمام آلةٍ عملاقة تسير باتّجاه شجرة (الزنزلاخ) العتيقة، تلك التي تتوسّط الميدان منذ مئات السنين وقد تزيد، فكم كانت مأوانا وملْهَانا، كمْ لعبنا حولها، واختبأنا بين جذورها التي أصبحت معَ الزمن ملتصقة بالأغصان في تفرّدٍ أصيل يدعو للانتماء، فأنا ابنةُ هذا المكان، صديقة هذه الشجرة، مازالت الآلةُ القميئة تتّجه مباشرة لتجتثّ هذه الحياة، عفوًا.. هذه الشجرة، حتّى تلامس عجلاتها جسدَ "حليمة" المستميتة في سبيل عدم اجتثاثها، وفي صراخٍ هستيريّ غير معلومِ الحروف ولا الكلمات استدعى كلّ الجيران والمارة.

ترجّل سائق الآلة مُمتعضًا مُحدّثًا رجلًا بجانبه: هو فيه إيه!؟.

ويردّ الموظف بصيغة العالم ببواطن الأمور: ما تاخد في بالك، دي ستّ كده على الله.

ويتبرّم السائق وينسابُ الجهل من فمِه قائلاَ: يا عمّ عاوزين نخلّص شغلنا ونروّح بدري، دي شجرة قدّ التهمة، هتآخد وقت.

الموظّف محدّثًا رجالات الشارِع: يا جماعة، حدّ قريبها هنا، ييجي يآخدها، واللّا شيلوها من قدّام الرافعة؛ هتتأذى.

إنّه جنون مُطبق ما تسمع، ما هذا الاضمحلال النفسي الذي يتحدّثون به؟، أين ذهب الذوقُ العام، أين ذهب الجمال في النّفوس واللغة، بل أين رجالُ التراث والعلم، فهذه الشجرة يجبُ أن تكون محميّة عالمية، فلا مثيلَ لها، تذكر أنّها زارت بلدانًا كثيرة بالعالم، وتعود دائمًا لتراها فقط، فلا مثيلَ لها، أفيقوا أيّها الجاهلون، أيّها المضمحلّون نفسيًّا وعقليًّا، يعترض بعضُ الرجال طريقَ الرافعة، فهي تراثهم، ويحتدم النقاش، أحداثٌ وأحداث، وصورٌ تتراءى لمسئولين وشرطة، وأناس وأطفال يصرخونَ من الفزع، ولا يعلمون ماذا يحدث، ويحمل بعضُ عناصر الشرطة حليمةَ بلا

هوادة وهي تصرخ بوضوحٍ مُهين لكلّ القهر والظالمين: شجرة أولادي، حاسبوا عليهم، يا ولاد تعالوا هنا، تعالوا، منكم لله، سيبوهم يلعبوا، يا ضنايا يا ابني، ابني، ابني...

وبدأتْ في انتحابٍ ونحيبٍ لا يقطعه شيء، ولا حتى لالتقاط الأنفاس، توقّف الركب جميعُه في ذهولٍ، فلم يستوعب كلّ من فيه بدرجاته الوجودية، ما هذا القهر! وصمتَ الجميع في ترقّب، وذراعُ الرافعة يرتفع ليغمد في قلب الشجرة، لتسيل دماءٌ غيرُ معلومة من مكان ما غُدرت، ارتعد السائق وولّى الدّبر.

وتعالتِ الأصوات: الله أكبر، لا إله إلّا الله. وبدأت الشجرة في التّداعي، فلقد أصابها الملْعون في مقتل قبلَ أن يولّي الأدبار، أهي حقًّا دماء؟!، أم أنّه ما تحتويه من ذكرياتنا وطفولتنا وحبّنا لها، ما تحتويه من مرحنا ودموعنا وبقايا أسمائنا التي كنّا ننقشها لا ندري على جذعها أم جذرها، فهي كالأم لا تعترض على أيّ ما يُسعدنا، حتى دلّلتنا جميعًا.

أمّاه. صرختْ "منى" في لهف الثّكلى، نعم الثكلى؛ فحبّها كحبّ الأمّ الابنة الصديقة الغائبة العائدة الراحلة، كم لوقع الكلمةِ من شجنٍ.. أمّاه،

كم قمتِ باحتضاننا، كم كنت بنا رفيقة مِن قيظ شمسٍ، وسيل مطرٍ، كمْ داعبتنا وقمتِ بتخبئتنا لنفوز في لهونا. أمّاه.. صرخة اختلطتْ بصوت سقوط الزنزلاخ على الأرض، سقوط بَدّلَ سلامَ الخطوات المخملية، أصابها بطقطقة حزينةٍ كأنّها إزهاق أرواح عندما تطؤها أقدام الركب بكلّ طبقاته الوجودية، صوتٌ مخيف، زاده عمقًا زقزقة فزعة للعصافير التي ينهار وطنُها، وهديل حزين لحمائم تسقط أعشاشُها بصغارها، صوتٌ غريب يمتزج بهم، صوت لأرواح غيرِ مطمئنة، كمَن أُضجّ مضجعهم في عنف، ومن بين جدائل الأغصان المتشابكة بدأتْ تلمح أطيافًا تعرفها، تظهر ثمّ تخبو، تبدو ثمّ تتلاشى في غنجٍ طفوليّ لطيف، حثّها على الابتسام أخيرًا، شجّعتهم ابتسامتها الحميمة على الظهور في تقافز بريء حرّ، إنّها أرواح كلّ مَن ينتمون إلى هذه الشجرة، معلقة على كلّ تفاصيلها، يمارسون تجنّسهم بجنسيتها في صخب الطفولة.

مُنى.. مُنى. إنّه صوت "عوض" العابث في لامبالاة يضحك كعادته، ولكنْ هذه المرّة وهو يحلق فوق الأرض، وفي مجال شجرتهم، إنّهم هُم.. ولكن في طبقة وجودية قمة في الإمتاع، أطفال.. أرواح.. ملائكة تملؤهم روح البراءة والشقاوة والمرح والجنون، يا لهم من مُخلصين.

وتُناديه "منى" مُبتسمة: عوض!، إزّيك؟ أخبارك إيه؟.

"عوض" وهو يلتفّ في الهواء في حركة أفعوانية مسرحية كعادتِهِ: أنا جميل، أنا حرّ، شفتِ بقيت باعرف أعمل إيه؟!.

ويلتفّ مرّة أخرى، ويحلّق بسرعة في الفضاء باسمًا مزهوًّا، كمَن نجح في تدريباته وأضحى مميزًا.

منى (وقد علا صوتها بالضحك): ماشي، شاطر جدًّا، تعالى.

ويُجيبها بينما يطير متباعدًا: لا.. لا.. أنا طاير، أنا طاير. واختفى عن العيان كعادته لاهيًا.

الله يا منى. (إنّه صوت "نهلة") شعرك بقى جميل قوي، هو بقَى طويل كده ازّاي، كان قصير قوي.

لمعتْ عينَا "منى" بفرحة تحسّها دائمًا عندما يُثني أحد على شعْرها تحديدًا: عشان كنت بحبّ شعرك قلت هاخلّيه زيّه.

وببراءتها المعتادة قالت "نهلة": طيب اتفضّلي.

ومدّت يدَها إلى السماء تختار بعناية شرائط من قوسِ قُزحٍ لتُزيّن به شعرَ صديقتها الجميل. رقيقة كعادتها، كانت لا تحتاج أنْ تكون ملاكًا، ولا روحًا معلقة بأقدار الشجرة، كانت تحمل طفلًا صغيرًا أصغرَ منها بكثير في طيات نورها، ممّا أثارَ فضول "منى" لتسألها: مين ده يا نهلة؟.

ده ابني. أجابت "نهلة" في صوت حزين.

وتهلّلت أسارير "منى"، وقالت بتعجّب: ما شاء الله، جبتيه معاكِ ليه؟ هوّ يعرف هنا؟.

"نهلة" محاولة شرحَ المأساة في بساطة: لا.. أنا اللّي جيت معاه، هوّ مات وهو صغير ماقدرتش أسيبه يا منى، ما قدرتش.

ربّتت "منى" عليها، وابنها، قائلة: حبيبتي، ربّنا يعينك. وشردتْ في حزن مُتذكّرة أبناءها، ترى هل سيحتملون فراقها؟! هل ستكون مُقصّرة في حقّهم إن رحلت. وانتشلتها من تفكيرها "نهلة"على تساؤلٍ تأخّر قليلًا: منى، ما لك؟ وإيه كلّ الناس دي؟.

وباقتضابٍ تردّ "منى": أنا تعبانة قوي، بردانة يا نهلة، أنا باموت.

وببساطة ويقينٍ تردّ "نهلة": لسّه بدري.

وتتمسّك "منى" بلمحةِ الأمل تلك: بجد؟! أنتِ عارفة كده بجدّ؟!.

وتتجاهل "نهلة" الردّ، وتأخذ دفّة الحديث إلى اتجاه آخر: "منى"، أنت ليه رجعتِ هنا؟ احتجتِ زمانًا في إيه؟ كلّنا رجعنا لمّا فاض بينا العذاب. مش هنسيبك صدّقيني ارجعي معانا، إحنا قرّرنا نرجع من الأول، نعيد حياتنا بطريقتنا بعد ما تعلّمنا وفهِمْنا.

واختفتْ "نهلة" في هرولة منادية بكل الأسماء التي تعرفها "منى"، والتي تذكرها، ومَن تتذكرهم حين تقوم "نهلة" بالنّداء عليهم، لم تعِ "منى" الخبر، لقد اتّخذوا قرارهم، "اختيار ثالث" لم يخطرْ لها على بال.

حقًّا، لماذا لا نعود إلى مبدئنا حالَ ما خذلنا العمر؟!، نعود ونحنُ نعلم مواطنَ الألم فلا نطأها، نعود أطفالًا بذاكرة كبار، بذاكرةِ عمرٍ انقضى ورحلَ بزمنه الوقتي، وترك لنا ذاكرة وقائيّة، يا له من اختيار، ولكن مَن يضمن لها أنها ستتذكر حينما تريد، وستنجو من الخذلان والألم قبل حدوثهم، وبينما هي تناقش الاختيار الثالث بداخلها عادتْ "نهلة" ومعها عشراتٌ من الأرواح التي عادت إلى لحظة الطفولة، كلهم أصدقاؤها،

فيضٌ عابث من أطفال مُخلصون مرحون، إنه ما ظنّه الجاهلون فاقدو البصيرة أنّ دمًا يسيل من الشجرة، إنهم أرواحنا أيّها الجبناء، فلتتنّحوا جانبًا. تهلّل وجه "منى" وتراقصت خصلاتُ شعرها بالشرائط القزحية..

في طفولة مُبْهجة، مدّت يدها لهم، سأعود معكم من البداية. "عبير" تنظر إلى مَن يحملونها في فزع وترقّب: حدّ حسّ بيها؟.

ردّد أكثر من صوت: أيوه.

أحكمتْ قبضتها على يدِ "منى" التي تحرّكت في نبضة نهائية حالَ اتّخاذ قرارها بالذّهاب مع "نهلة" وعالمها الأول.

ونادتها: منى.

صمتٌ تامّ تعمّدته "منى"، فهي تخشى أن تُغذّي الأمل لدى الأحياء بعودتها، فهُم مازالوا أحبّ الأحباء وهي ضعيفة حيالَهم، ضعفًا قد يقهر قرارها.

سأذهب معهم. "منى" مُحدّثة نفسها في صوت عال ليطغى على صوتِ قلبها، سأذهب. والتفّت بجسدها تجاه الشجرة المغْدورة، واختلّ توازنها،

ارتعب الركب، توقف عن الحركة، زادتِ التّرانيم حدّة وصراخًا، صوت جمعيّ هادر: يارب، مش هنسيبك تروحي منّنا يا مُنى.

ألقى حورس الشمسَ القدرية التي يحملها بأجنحته ليُظلل الرّكبَ ويُنير الطريق، فهو لن يتخلّى عنها لكائن مَن كان، صارخًا: إنّها منى، وإنّها لي.

قالها بحزمٍ نصفِ إلهٍ فرعوني ضارب في قدم الزمن والحضارة والوجود، إنّها هي الوحيدة التي سأسمح لها باتخاذ القرار، ولن يكون غير ما أُريد، وستكون لي، سنكتمل سويًّا حتمًا، وأرسل أجنحتَه لتلتقطها قبل السقوط، فهي منه وله لا محالة.

أصواتُ الرّكب آخذةٌ في التصاعد، حتى ارتجت أستار السماء وزُلزِلت الأرض من هوْل توبتهم وإصرارهم عليها أن تعود، غفرانك، عودي لنتوب، عودي لنتطهّر من آثامنا في حقك، وألقى السماويّون قناديلهم لتغمر الفضة الذائبة أرض الميعاد، حالَ إنْ سقطت لا تسقط على الأرض الجافة، وهم لا يعلمون أنّها أحنّ عليها من قلوب معظمهم.

"السحاب" يلفّ السماء في حيرةٍ ووجل، يكتب لها رسائلَ بدمِه: لا ترحلي، فعودتك لي كانت أملًا ما لبثت أن تُردّ لي مكانتي في الأُفق.

لا ترحلي.. نداءٌ من السماء، رجاء من الأرض، نبضة من القلوب، واستمرّ الضبابيون في صمتهم وإنْ بدأت أطرافهم تتساقط من الألم، وتشقّقت الملامح التي يحملونها من الخِزي، فلكمْ خذلوها في حياتها، فحتّى الرجاء لا يستحقّونه. توقفت عنِ السّقوط فهي بقانون الطبيعة البرزخي تستطيع، لملمت أطرافَ ما تبقّى من وجودها، ارتقت سلّمَ ضريح "سيدي شيمر"، فهو منبرٌ يرى المشهدَ كاملًا، ترى انعكاس صورتها في أعينهم وقلوبهم، وحتّى شمس كلّ الحيوات الممتدة أمامها، إنّها في اكتمال بهائها، نورانية صادرة من قلبها المحب لكلّ الحضور، تحمل من كلّ روحِ فيهم ملمحًا في تكوينها، بريق عينيْها المُعتاد يُكَوِن مع ابتسامتها المنسابة بريق أمل لكلّ الحضور، نسيم حنين يداعب خصلاتِ شعرها في ودّ ملائكي، وانسابَ صوتُها في قوّة وحميمية: إلى كلّ مَن حضر رَكبي اليوم، إلى الأحبة، إلي كلّ مَن شارك بتكويني من فرحة ونبضة وحبّ، وإلى كلّ مَن خذلني وهم كُثرُ، كلّ من أغمد خنجرًا بين أضلعي.. سلامًا، إلى كلّ مَن قهرني وظلمني عن قصدٍ أو عن غير قصد، إلى كلّ مَن رأت عيني.. سلامًا، فلقد غمرتموني بترانيم توبتكم، وأثلجتم صدرَ حياتي بصدقكم، وإن كنت في حياتي أحوجَ ما كنتُ إليه الآن، وقد أثّقَلَتكم ذنوبكم ونئتُم بحمل خطاياكم، جئتم تبغون الخلاص، جئتم إليّ وأنتم

تعلمون، وأنتُم على يقين من حبّي ومغفرتي، من أجلي وأجلكم غرّدوا بترانيم السّلام، فقد تستدعي لكم غفران السماء، فأنا لا أملكُ إلّا الحبّ أُهديه لصدقكم، صدقًا لمسته الآن، كم تمنيت أقلّ القليل منه في حياتي ولم أجده، كم أرقتُ دمعًا ودمًا وحنينًا على أعتابكم فلم ترحموا وَهَني، إلى كلّ مَن كان يجب عليه رحمتي بحُكم الدم، بحكم الإنسانية، وكلّ القوانين الإلهية ولم يفعل.. سلامًا، فلا حاجة لي بكم الأن، اخرجوا من مشهدي غيرَ آسفة، فالرحمة هي فيض عند ربي أستدعيه. وتهدّج صوتها من الدمع، فمازالت تحمل للجميع الحبّ، كم تكره نفسها لضعفها هذا.

استطردتْ في عزم: لا شيء يهمّ الآن، فكونوا من تكونوا، وافعلوا ما تريدون، وللأسف لأنّني أحبّكم أضعُ بين أيديكم القرار، ولكن هذه المرّة سيكون مشروطًا، وفقط مَن يمكنه تحقيق هذا الشّرط سأذهب معه، وسيكون هذا قراري.

شخَصَ الجميعُ أبصارَهم بشفاهها، منتظرينَ شرطها الوحيد، ازداد الوهنُ بأوصالها، ارتخى الجفن، وبدأ الوعي في التخاذل والانسحاب، وتهاوتْ من على درجِ الضّريح، "منى" صوت نداءٍ باسمها يتكرّر.. "منى"، ثمّ يترادف "ماما" بصوتين هزمَاها، وهزما كلّ عنادٍ كان يُسيطر عليها.

شقّ الصوتان الجموعَ في عصبية وعنف، مستخدمين أيديهما لشقّ طريقٍ لهما حيث ترقد هي، في حشرجتها انتبهت..

يا إلهي! موجّهة نظرها إلى "حورس" الذي بدا برغم القلق على وجهِه علاماتُ انتصار وإنْ كانت حزينة، إنّهما آخر أمل.

إنّه أخوها الأصغر "محمد"، قد يكون فارقُ السنّ أعوامًا عديدة بينهما، ولكنّه توأمها، توأم روحها، أو هو بمعنى متطابق، إنّه هي، الجزءُ منها الذي نال حريته، بلونه الأسمر الذي تعشقه، والآخر "عبد الله" حبّة قلبها الذي يقف على أعتابِ الشباب، كم تغنّت بلونه وحبها له، وهو يعلم.

انكفأ كلّ منهما غيرَ مصدّق، سقطَا راكعين أمام جسدها، ونهَرَ "محمد" المُسعفين: إنتوا اتجنّنتوا، إزّاي سايبينها كده؟!.

يضطربُ "المسعف"، ويُشير إلى "عمر" قائلًا: دكتور عمر قالّنا مفيش فايدة من نقلها.

نظرَ "محمد" بكلّ عنفٍ إلى الطبيب، فهو يعرفُه جيدًا، ولم ينبسْ ببنت شفة، فالآن هي الأهم.

وتترقرق أعين "محمد" بالدّموعِ وهو يُناجيها: منى حبيبتي.

وصمتَ مُغالبًا دموعه، فهو يعلم أنّه الوحيد الذي يدرك ما يجولُ بخاطرها، ولمَ هي هنا الآن. "منى"، أنا آسف، آسف بسّ كان لازم أمشي، كلّ الدنيا هنا غلط، الكل مُعاق نفسيًّا، مجتمع مُختلّ، آسف، كنت أنانيًّا.. وصرخ باسمها صرخة مَكْتومة. "منى".. قالها في شهقة سقطَ رذاذها ودموعُه على وجهها.

ودّت "منى" لو تستطيع أن تحرّك يديها ليحتضنا بعضهما البعض بشدّة كعادتهما، وقالت: حبيبي، ربّنا يسعدك، أنا عارفة والله، مش محتاج يا قلبي تقول حاجة، أنا بحبّك.

ويحاول فعلَ أيّ شيء فينادي: "عبد الله". (مناديًا إيّاه في حزم): شيل ماما معايا، هاتِ النّقالة الأول.

"عبد الله" مذهولًا ينظر إليها: ماما؟! وكأنه يتساءل، ومرّة أُخرى يُناديها ماما؟! بصوتٍ مُرتَجِفٍ خفيض، ينتظر أنها سترد حتمًا، فبرغم كلّ معاناتها لم تتأخّرْ يومًا عن الرد. ولكنها لم تردّ هذه المرة.. ردّي بقى أستحلفك بالله، ماما، أنا آسف.

ويُكرّر "محمد" عليه بلهفة: بسرعه من الإسعاف.

عبد الله: لأ. (قالها في ذهول) ماما بخير. منحنيًا يحملها واضعًا يده تحتَ رقبتها، لم يألُ انتباهًا لخليط الدم، وبيده الأخرى احتضنها محاولًا رفعها من على الأرض.

لم يستمعْ "عبد الله" لأحد، ولا لشيء، فهو خلافًا لكلّ التّقديرات الطبية يعلم أنّ والدته ستستطيع، فهي دائمًا ما تفعل، ويعلم مدى قُربِها منه. همسَ بأذنها وهو يحاول حملها..

عبد الله: ماما، أنا هابقى كويس، هاكمّل في التدريبات وهاسمع كلّ كلامك تاني عشان ماتزعليش، ولوني هيسمرّ أكتر، مش أنتِ بتحبّي كده؟!، فاكرة صورتنا سوا؟! فاكرة يا ماما؟.

وأخذَ مُغالبًا دموعه يرفعُها، ويضمّها إلى صدره الشاب، لقد هزمَها "حورس"؛ فأمومتها هي الصخرة الوحيدة التي يتحطم عليها عنادُها، أحكمت قبضةَ يدها على يد ابنها في صحوة أم، وتمتمتْ في أُذنه وحدَه بشرطها الوحيد لأيّ عودة:

– أنا لا أريد أنْ أنجو، أريد أنْ أحيا.